إبداعات عربية

مِن وحْي الوافر

وقصائدُ أخرى

الحَسّاني حسن عبدالله

دائرة الثقافة الشارقة

مِن وحْي الوافر

الحَسّاني حسن عبدالله

مِن وحْي الوافر

وقصائدُ أخرى

إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة 2017 م

الناشر: دائرة الثقافة ـ حكومة الشارقة ـ دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 5123333 9716+
برّاق: 5123303 9716+
بريد إليكتروني: sdc@sdc.gov.ae

الطبعة الأولى 2017

811.962
ع ح . م عبدالله، الحساني حسن
من وحي الوافر وقصائد أخرى / الحساني حسن عبدالله .ـ الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: دائرة الثقافة، 2017.
187 ص. ؛ 14 x21 سم
1- الشعر العربي – مصر 2 – الشعر العربي – دواوين وقصائد أ – العنوان

ISBN : 978-9948-9995-7-7

إهداء

إلـــى عارِفـــيَّ، لِعرفانهـــمْ، هديـــةَ مُغتبِطٍ يَشـــكرُ
إلى مُنكريَّ الأُلَى أَظْهَروا، ومُستنكريَّ الأُلَى أَضْمَروا
هديةَ مَن لم يزلْ آملاً برغْمِ الدّياجيرِ أن يُبْصروا
إلى هؤلاء وأُلاءِ سواءً كتابي، وحُيِّيتَ يا مُبْحرُ
قَصَدْنا الأَواذِيَّ هـدّارةً، فما راعَنَا ثَبَجٌ يَهْدِرُ
فإنْ كنتَ ذا قُدرةٍ فاصْحبَنَّا، وإلّا ففسِّحْ لمنْ يَقْدِرُ

* * *

توطئة

هذا هو العنوان الأساس للمصفوفة الشعرية الماثلة والنابعة من تضاعيف الشـعرية العربية الكامنة في ديوان العرب الكلاسـيكي، للشـاعر الحسـاني حسـن عبدالله، ومن العنوان نلمح ذلك الاعتداد بالمـوروث الشـعري العربي لجهة العـروض الخليليَّـة والقوافي النَّسـقية والـرويِّ الناعـم، ومشـمولاتها مـن التنويعـات اللغوية المُشـعرنة بالتفعيلـة حـد المتاخمـة لإحياء غريـب المصطلحات القاموسية، والمشـروحة ضمناً من قبل الشاعر، وكذا التأسِّي غير المعلـن بتجربة أبـي العتاهية العروضية، الموازيـة والمغايرة لما ذهب إليه الخليل بن أحمد الفراهيدي.

هنـا تصبـح الجُملة المكتوبـة حمّالة وجه من وجوه الشـعرية،

وينبثق الدوزان الشعري من الكلمة والجملة المحكومتين بسياق تراتبي للحركة والسكون، مما لسنا بصدد تفصيله هنا.

يتقدَّم الشاعر على خُطى التأصيل الذوقي المفاهيمي لمآثر الشعرية العربية العتيدة، مُقيماً في مرابع ذلك الزمن الإبداعي.. رائياً لضرورة المواصلة لما ذهب إليه الأسلاف الكبار، وناظراً للدَّوْزنة الشعرية من خلال أدوات الفراهيدي، وأبي العتاهية، والأندلسيين، ومن تلاهم.

لا يفتعل الشاعر خصومة إجرائية مع تجارب التفعيلة اللاحقة على القصيدة العمودية، ولا يخفي في ذات الوقت استرخاءه المطمئن في أحضان الأُصول، وتضاريس الديوان الشعري العربي الموروث من الماضي المجيد.

نتجوَّل معه في سلسلة من القصائد العمودية، والمنفتحة على تنويعات متعددة في الرَّويِّ حيناً، وعلى استطرادات (السَّجعشعرية) أحايين أُخرى، واللازمة التراتبية المُموْسقة بالقافية غالباً.

بهذا المعنى نستعيد مقولة شاعر يتموْضع في زمن الإحياء الشعري العربي الذي افترضنا ذات يوم قريب انقطاعه، لكن الحقيقة تشير إلى أن الإبداع لا يموت وإن خبا أو تلاشى.. تاركاً مسافة للجديد المتجدّد، فالجديد لا يمكنه أن يغادر القديم مغادرة مطلق، والقديم لا يمكنه التخلي عن تقديم مفردات لما هو أجدّ.

د. عمر عبدالعزيز

ارتعاشة

أَرَعَشٌ أَصَابعي والعُمْرُ صُلْبُ الساعدِ؟

سَلِمْتِ لي، يا غَضَباً على الوجودِ الراكدِ

عَلَى الرجالِ استَسْلموا، على الإباءِ الخامدِ

عَلَى جموعٍ سفِهَتْ يومَ رشادِ الراشدِ

عَلَى تساوٍ أَلْحَقَ السِّفْلَةَ بالأماجدِ

عَلَى تَعَزّينا بِتَذْكارِ صلاحٍ بائدِ

* * *

قد كنتُ راجياً غدِي، فكادَ لا يُرْجى غدِي

أعافُ كوباً في يدي ناءتْ بحَمْلِها يدي

أنْ تتحــدَّى جَلَــدي توافُــه الشــدائدِ

أنْ تعرِفَ البُكاءَ بَعْدَ مَقْتِه قصائدي

أنْ أُسْلِمَ النفسَ على رغمِي لِعَطْفٍ باردِ

أنْ يستجيزَ رقدةَ الموتَى طموحُ الماردِ

سلِمْتِ لي في حَالِكٍ مُشْتَجِرِ المقاصدِ

عوناً على آتٍ يزيدُ فيه فَقْدُ الفاقدِ

سَـلِـمْـتِ، يـا أبَــرَّ مِــنْ والــدةٍ ووالــدِ

* * *

أَعْـلَـمُ أنَّ نُفْرتي مِـنْ خَـدَمِ المَفَاسِدِ

ومِنْ سَدَادٍ هو دَعْوَى مُسْتَرِيحٍ قاعدِ

ومِـنْ تشابُهٍ سَرَى في أَعْيُنٍ هوامدِ

ومِنْ فتاوَى ليس يُضْنِيها اجترارُ السائدِ

آدَتْكِ، لكنْ ما احتيالي في فؤادٍ ساهدِ

وفي زمـانٍ مُبْهَمٍ مُسْتَكْرَهِ المواردِ

لكنني أَلْمَحُ نـاراً في الظلامِ الصاعدِ

* * *

يَنْأَى بها وَهْنُ الرّفاقِ عن عيونِ الرائدِ

حتى إذا ما شَرَدَ اللّبُّ صحا في الشاردِ

شيءٌ تَحَامَتْهُ دماءُ راكعٍ وساجدِ

وأَنْشَبَتْهُ في عروقي ثورةً مَواجِدِي

أُحِسُّهُ أَصْلَبَ مِنْ هذا البلاءِ الراصدِ

يَوَدُّ لَوْ يوماً يُلاقي أَلْفَ نِدٍّ صامدِ

والقَبَسَ الواهنَ شمساً جَمَّةَ الرّوافدِ

فارتقبِي أصابعِي، واحتملِي، وجالِدِي

* * *

حصار

صَاخِبٌ كلُّ شيءٍ، ولا مُسْتراحَ، كأنَّ الهديرَ مَعِي يَقْطُنُ

وَدَعَتْنِي المآذِنُ، لكنَّ رُوحِيَ مِنْ عَصْفِ أبْواقِها تَشْطُنُ

وَسُئِلْتُ فحُوصِرْتُ كَيْ لا أُفَكِّرَ: أَلدِّينُ أَبْقَى أم المَوْطِنُ

والإذاعَاتُ تَدْوِي، ويَزْعَقُ ناسٌ بلا مُوجِبٍ، طَنْطِنُوا، طَنْطِنُوا

وَسْطَ هذا الضَّجيجِ هُدوءٌ يُفكّرُ كَيْفَ نَموتُ ولا نَفْطَنُ

كيف نُذْعِنُ شَيئاً فشَيئاً لأَنْ يَطْرُدَ المالِكَ الأَرْضَ مُسْتَوْطِنُ

وَنُحِسُّ كأنَّ امْرَأَ القَيْسِ حينَ نُطَالِعُ دِيوانَهُ يَرْطُنُ

وكأنَّ جَلابِيبَ أَبْناءِ يَعْرُبَ - وَهْيَ مُعَطَّرَةٌ - تَعْطُنُ

ضَلَّ يا خَارِجينَ على الحَاكِمينَ مُبِينٌ لنا غيرَ ما يُبْطِنُ

فَلْتكونوا رِجَالاً وكُونُوا ملائكَةً بَعْدُ أَوْ شَيْطِنُوا

كُلُّنا في الهَوانِ سَواءٌ، فإنْ شِئْتُم الهُونَ أَضْخَمَ فاسَّلْطِنُوا

وَطَنَ النَّفْسَ آبٍ على أنْ تَعِزَّ، فَيَا أَدْعِياءَ العُلَا وَطِّنُوا

* * *

لكِ عَيْنٌ فأَبْصِري

إلى ريمان

كَفْكِفِي الدَّمْعَ، لَنْ يَرُدَّ العَوادِي أَسَفٌ مِنْ شَجِيَّةٍ، أوْ شَجِيّ

وأَطِلّي على الزَّمانِ عُقاباً، وانْفِرِي مِنْ وَداعَةِ القُمْرِيّ

وتَغَنَّي بِهمِّ نَفْسِكِ، لكنْ لا تَوَلَّيْ عنْ هَمِّنا الأَصْلِيّ

لَكِ عَيْنٌ، فأَبْصِرِي نَوْحَ باكٍ، وبَوَاكٍ، في المَأْتَمِ اليَوْمِيّ

لَكِ عَيْنٌ، فأَبْصِرِي ما نُلاقِي تَحْتَ نِيرِ التَّقَدُّمِ الغَرْبِيّ

يا ابْنَتي، يا ابْنَةَ المُروءةِ والحِكْمةِ والمَجْدِ والهُدَى النَّبَوِيّ

إنَّما أَنْفُسُ الأَنيسِ سِباعٌ يَتَفارَسْنَ، بالقَنا والقِسِيِّ

وبأَقْوَى مِن السِّلاحِ، بدِينٍ، ولِسانٍ - مُجَاهِدَيْنِ - وزِيِّ

فإذا انْفَكَّت العُرَى في فَرِيقٍ ضَاعَ حَتْماً، في العَيْلَمِ اللُّجِّيِّ

والذي لا يُعِدُّ ما يَرْدَعُ البَغْيَ - بدَعْوَى السَّلامِ - أَغْبَى غَبِيِّ

ما حِوارٌ يَدُورُ - باللهِ - ما بَيْنَ شِيَاهٍ وعَالَمٍ ذِئْبِيِّ

فاحْذَرِي يا ابْنَتِي أَسَاتِذَةَ الذِّلَّةِ فِينا، خَلائفَ ابْنِ أُبَيِّ

واقْرَئِي يا ابْنَتِي، لتَجْتَنِبِي خَبْطَ الحَيارَى في الغَيْهَبِ العَصْرِيِّ

اقْرَئِي يا ابْنَتِي قِرَاءَةَ حَيٍّ يَتَحَرَّى المَغْنَاةَ، لا غَيْرِ حَيِّ

لَكِ عيْنٌ فأَبْصِرِي، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ بَلايَا تَنْوِيرِهِمْ بخَفِيِّ

ثُمَّ شُقِّي إلى العَلاءِ طَرِيقاً شُقَّ مِنْ قَبْلُ، مُنْذُ عَهْدٍ قَصِيِّ

سَارَ فِيهِ، كَمْ سَارَ فِيهِ على لأْوَائِهِ، مِنْ كَمِيَّةٍ وكَمِيِّ

فاعْرِفيهِ، لتَعْرِفِي فَرْقَ ما بَيْنَ ضِياءٍ أَصْلٍ وضَوْءٍ دَعِيِّ

لَيْسَ هذا اليَوْمُ الذي أَنْتِ فيهِ غَيْرَ جُزْءٍ مِنْ غابِرٍ مَطْوِيِّ

لَكِ مَاضٍ عَزَّتْ بِهِ دَارُ لَيْلَى، ومَغانِي لُبْنَى وسُعْدَى ومَيِّ

فاعْرِفيهِ، وأَنْكِرِي أَنْ تَكُونِي وَطَراً شَائِعاً لأَهْلِ الغَيِّ

وعَزِيزٌ عَلَيَّ دَمْعُكِ، فاجْتَازِي الأَسَى، واصْبِرِي عَلَى المَقْضِيِّ

وإذا ما الزَّمانُ أَعْرَضَ عَنَّا، فاحْقِرِي مَنْظَرَ الكُسَى والحُلِيِّ

وإذا ما بَكَيْتِ فابْكِي شَهِيداً، لا عَلَى حَظِّ وَالِدٍ مَرْمِيِّ

وأَسِـيراً، ورُبَّمـا غُلِـبَ اللَّيْـثُ عَلَى رَغْـمِ بَأْسِـهِ اللَّيْثِيِّ

وأَجِلِّـي ذِكْـرَى دِمَاءٍ أُرِيقَـتْ لتُتَجِّيـكِ مِـنْ أَذَى الأَجْنَبِيِّ

يا ابْنَتِي لَسْـتِ بابْنَتِـي إنْ تَحَيَّزْتِ لِـلَاهٍ، أَوْ غَافِلٍ، أَوْ عَمِيِّ

نُوِيَـتْ نِيَّـةٌ، وها نَحْـنُ صَرْعَى لقَدِيـمٍ مُسْـتَحْدَثٍ دَمَوِيِّ

فارْفَعِي هـذه الكَمَائِمَ وانْوِي، واعْزِمِي عَزْمَـةَ الكَرِيمِ الأَبِيِّ

إنَّ دَاءً خَلْـفَ الضُّلُـوعِ دَوِيّـاً، لا يُـدَاوَى بغَيْـرِ دَاءٍ دَوِيِّ

* * *

مُعارَضَةٌ تَأَخَّرَتْ

أراد الله لي - جلّت حكمته ودقّت - أنْ أُمتَحَن، وأن يطول زمان المحنة، فنسيني ناسٌ، وذكرني نـاسٌ، وكان من بين من ذكروني أخ كريم هو «عبد العليم عيسى». فاجأتني يوماً قصيدةٌ له منشورة في جريدة «الأخبار» من الكامل الأول على رويّ الدال المكسورة مهداةٌ إليَّ، يُعزّيني ويرجو لي الصمود. ونويتُ أن أعارضها، لكن ظلت العوائق تعتاقني، فتأخر تحقيق النية حتى فوجئتُ يوماً بخبر وفاته فجاءتني هذه المرثية من البحر نفسه والقافية نفسها حاملة هذا العنوان الذي تطلّب هذا البيان.

طَيْفٌ، كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ لَحْمٍ ومِنْ عَظْمٍ، كَأَنَّكَ هَابِطٌ مِنْ فَرْقَدِ

غُصْنٌ تَأَوَّدَ أَخْضَرٌ، لَكِنَّهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ لَيْسَ بِالمُتَأَوِّدِ

صُلْبٌ وقَدْ غَدَتِ الصَّلَابَةُ سُبَّةً في رَأْيِ خَادِمِنا ورَأْيِ السَّيِّدِ

قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَزُورَكَ في غَدٍ، لَوْ كَانَ في المَقْدُورِ أَنْ يَأْتِي غَدِي

لأَقُولَ شُكْراً أَنْ ذَكَرْتَ مُطَرَّحاً طَيَّ الحِجَارَةِ واسْتَثَرْتَ تَجَلُّدِي

لَكِنْ عَجِلْتَ، أَتَاكَ آتٍ أَيِّدٌ، ما اسْطَاعَ رَدَّ يَدَيْهِ أَقْوَى أَيِّدِ

مَازَالَ في الإمْكَانِ - مَنْ يَدْرِي؟ - إذا مَا حَلَّ يَوْماً يا صَدِيقِي مَوْعِدِي

أَنْ نَلْتَقِي، لِمَ لا؟ وتَشْهَدَ في أَخِيكَ - وقَدْ أُزِيحَ الوَقْرُ - ما لَمْ تَشْهَدِ

وتَرَى - إذا حَجَبَتْ نَسِيمَ مَوَدَّتي عَنْكَ الحَيَاةُ - مَوَدَّتِي وتَوَدُّدِي

لِمَ لا؟ وهَلْ سَوَّى بَنَانَكَ صَانِعٌ عَبَثاً؟ وَقَالَ لِفِيكَ فَاهُ أَنْشِدِ

طُوِيَ الزَّمانُ كَأَنَّ شَيْئاً لَمْ يَكُنْ، وَاهَا، وأَوْهِ، على السَّنا المُتَبَدِّدِ

وهَوَتْ لَيَالٍ، بعد شَكْوَى طُولِهَا، في الجُبِّ، وانْحَسَرَتْ هُمُومُ المُجْهَدِ

ما بَيْنَ مَوْتَتِنَا وبَيْنَ المَوْلِدِ إلَّا كَمِثْلِ اللَّمْحِ، أَوْ قَبْضِ اليَدِ

ماذا تَبَقَّى أَيُّها الكَرَوَانُ مِنْ جَمْرِ الغَضَى، وسُطُوعِهِ في المَوْقِدِ؟!

أَيَكُونُ - كَلَّا، لَنْ يَكُونَ - مُغَرِّدٌ يا أَيُّها الشَّادِي كَغَيْرِ مُغَرِّدِ

قُمْ، واصْعَدَنْ، غُلَلُ الغَمَامِ دَعَتْكَ، فاسْبَحْ في المُحِيطِ السَّرْمَدِ

فَارَقْتَ دُنْيَا لا تُحَبُّ، وإنْ تَكُنْ أَحْبَبْتَها رَغْمَ القَذَى المُتَجَدِّدِ

أُلِفَ الهَواءُ بها، ولَكِنْ لَمْ يَعُدْ إلْفُ الهَواءِ بِمُقْنِعٍ أَوْ مُسْعِدِ

ورَحَلْـــتَ فِـــي الوَقْتِ المُنَاسِـــبِ، لا مَكانَ هُنـــا لغَيْرِ بَــلَادَةِ المُتَبَلِّدِ

ورَطَانَةِ العُبْــدَانِ للعُبْدَانِ، بِئْـــسَ الحِبْرُ، بِئْسَ العَيْـــشُ بَيْنَ الأَعْبُدِ

أَغْمِضْهُمـــا، إنَّ التُّـــرَابَ أَبَـــرُّ مِنْ فَلَـــكٍ غَـــوٍ، مُتَمَاجِـــنٍ، مُتَهَوِّدِ

أَغْمِضْهُما، لا خَيْرَ في مُتَسَـــاهِلٍ - شَـــهِدَتْ هَزَائِمُنَا - ولا مُتَشَـــدِّدِ

* * *

محمود محمد شاكر

لا تُسَـــمُّوا ذاك البِعَـــادَ جَفـــاءً، ربَّمـــا كان مَنْ تباعَـــدَ أدْنَى

عَلِـــمَ اللهُ أنني كنتُ أشـــتاقُ، ولكنْ شَـــوْكٌ علـــى البابِ ضَنَّا

لا تُسَـــمُّوا ذاك البِعَـــادَ جَفـــاءً، عَلِـــمَ اللهُ أنَّ قلبـــيَ أنَّـــا

وتماســـكتُ، بَيْدَ أني تزعزعتُ برغمي، طيراً مَهيضاً مُضْنَى

أَقْلَتَـــتْ أَسْـــطُرَ الجريدةِ عَيْنِي واسْـــتَهَلَّتْ، فلم أَكُـــفَّ العَيْنَا

قُلْتُ بَكِّي ما شِـــئْتِ يا عَيْـــنُ بَكِّي، وأَفِيضِي المُكَتَّـــمَ المُكْتَنَّا

جَلَدِي لا عَلَيْكَ، فسِّحْ قليلاً، جَلَدِي لَسْتَ بالمُحَمَّدِ هَنَّا

لا تُسَمُّوا ذاك البِعَادَ جَفاءً، إنّ فَصْلَ المُضافِ لا يتسنَّى

إنَّهُ كان حاضراً، أَمَرَ البَيْنُ ولكنْ عَصَيْتُ فيه البَيْنَا

طالما جَسَّمتْ مُخيَّلتي الجسمَ فلَبَّى لمّا دَعَوْتُ وحنَّا

حَمَلتْنِي على مُغَالبةِ الشوقِ طويلاً نَفْسٌ تَعَافُ المَيْنَا

ليس يُرْضِي الكريمَ أن يُفتحَ البيتُ إذا عُدَّ صاحباً بَيْنَ بَيْنَا

كَلَفٌ لاحَ وانْزَوَى، مَسَحَتْهُ راحَتاهُ، فلمْ يَعُدْ يُسْتَثْنَى

وسيَبْقَى سَنَاهُ - مَهْما يُصوِّرْ وَاصِفُوهُ سَنَاهُ - عنديَ أَسْنَى

وسأَبْقَى - وإنْ أساءَ الظَّنَّ - حامِداً، شاكِراً لَهُ، مُمْتنَّا

غِبْتُ لكنَّني عَلِمْتُ يَقِيناً أنّ لي في فؤاده الرَّحْبِ رُكْنَا

أَيْنَ مِنِّي عَهْدٌ قَضَيْنَاهُ كُنَّا نَتَمَلَّى، وحِينَةً نَتَغَنَّى

نتَحَسَّى الرَّحِيقَ، أيُّ مَتَاعٍ ذَخرتْهُ القُرونُ لِلشَّرْبِ دَنَّا

كَمْ قَرَأْنَا معاً فكان إماماً، أين مِنِّي جَنًى بكفَّيَّ مُجْنَى

ووَقَعْنَا على نميرٍ عَتيقٍ، طالَما طَابَ عَذْبُهُ لكِلَيْنَا

وَعَنَانَا - والعَصْرُ عَصْرُ السَّماديرِ وحَرْبِ المَعْنَاةِ - مَعْنَى المَعْنَى

ودَفَعْنَا عن الجَرِيحِ الذي أَثْخَنَهُ الرَّمْيُ، واحْتَرَمْنَا الوَزْنَا

ولقد مَدَّ بَيْنَنَا الوُدَّ أَنِّي أَتَمَنَّى بُلوغَ مَا يَتَمَنَّى

نَفَثَ الكَيْدُ سُمَّهُ فَتَصَدَّى، وتَحَدَّى، وكان لِلأُمَّةِ ابْنَا

ولقد كان - والمَعَاوِلُ تَهْوِي حَوْلنا، والحصونُ تَهْوِي - حِصْنَا

ولقد كان - والعزائمُ أعجازُ نَخيلٍ - عزيمةً لا تُثْنَى

شَيِّعُوهُ، فإنما خُلِقَ العَظْمُ ليسعَى بنا زماناً ويَفْنَى

شَيِّعُوهُ، مِنْ قَبْلِ أنْ تغربَ الشمسُ غروباً يُخْنِي على مَشْرِقَيْنَا

شَيِّعُوهُ، مِنْ قَبْلِ أنْ يَشْهَدَ الآمالَ تُطوَى، ويشربَ الدَّمْعَ حُزْنَا

ويرَى الدوحةَ العريقةَ تُهْوِيها فؤوسُ العُداةِ غُصْناً غُصْنَا

لَهْفَ نفسي عليه وَهْيَ طريحٌ تحت عينيه، وَهْوَ باكٍ جُنَّا

شَيِّعُوهُ، مضى الزمانُ الذي كان جمالُ الكلام فيه مِجَنّا

شَيِّعُوهُ، مضى الزمانُ الذي كان إباءُ الهوانِ فيه فَنَّا

شَيِّعُوهُ، مضى الزمانُ الذي كان إذا هُدَّ فيه شيءٌ يُبْنَى

والذي كان عندما يُحْسِنُ المُحْسِنُ يَجْزِي إحْسانَهُ والحُسْنَا

والذي كان إنْ أساء مُسيءٌ لمْ يَهَبْهُ وإنْ يَكُنْ فِرْعَوْنَا

شَيِّعُوهُ غَضاً تَصَلَّبَ حتى قلتُ هذي القناةُ لا تتحنَّى

وكَأنِّي نَأَيْتُ كَيْ لا أراهُ - بعد أنْ طالما اسْتَشاطَ - أَسَنَّا

شَيِّعُوهُ؛ وما الحياةُ إذا لم يَبْقَ منها إلا عليلٌ مُعَنَّى

شَيِّعُوهُ، وإنْ ذَكَرْتُمْ غريباً فاذْكُروهُ يا صَحْبَهُ بالحُسْنَى

ليت شِعْرِي أَقِيلَ غَابَ أخٌ يا صَحْبُ، أمْ قِيلَ يَسْتَحِقُّ السَّجْنَا

طُوِيَتْ صفحةٌ، وداعاً أبا فِهْرٍ، وداعاً، وَدِدْتُ لو تتأنَّى

قطعةٌ أنتَ مِن حياتي تولَّتْ، كنتَ فيها ظِلّاً ظليلاً، ولَحْنَا

شَيِّعُوهُ ريحاً رُخاءً على الخِلِّ، سَمُوماً إذا يُواجِهُ ضِغْنَا

وسلامٌ عليهِ حتى تَمُورَ الأرضُ يوماً، ويُصْبِحَ الصَّخْرُ عِهْنَا

وعَفَا اللهُ عَنْهُ؛ كان يُصَلِّي، وعسى أن يُحِلَّهُ اللهُ عَدْنَا

إنَّهُ ـ والذي أماتَ وأحْيَا ـ والذي أفْقَرَ العِبادَ وأغْنَى ـ

لَجديرٌ بأنْ يُلقَّى سُروراً، ويُلاقِي في فَيْئِها مُطْمَأَنَّا

وسَقَى اللهُ دَارَةً جَمَعَتْنَا، أَيْنَ مِنِّي هَواؤُها، أَيْنَ أَيْنَا

* * *

تَجَلَّدي يا لُؤلؤة

أصابَ رَمِيَّتَهُ الصَّائِدُ، وحَنَّتْ إلى خِلِّها نَاهِدُ

ألَا أَبْلِغ الحيَّ يا دَمْعَها، بِأنَّكَ في أَعْيُنِي جَامِدُ

نَفَاكَ أسًى لا يُطَأْطِئُ يوماً لويلٍ، نفاكَ لظًى باردُ

ولُبٌّ إذا فَجَأَتْهُ الخُطوبُ، فإنَّ سِواهُ هو الشارِدُ

ورُؤْيا، فقُلْ للعِجافِ سيأتي ـ وإنْ طال ليلٌ علينا ـ غدُ

لقد وَعَدَتْني عزائمُ ولَّتْ، وخَلَّدها أدبٌ خَالِدُ

لِيُوفِيَ قلبٌ، ويُوفِي لسانٌ، وتُوفِي يَدٌ صافَحَتْها يَدُ

أَلَا أَبْلِغ الدارَ يا دمعَها، بأَنَّ مُغَيَّبَها عائِدُ

تُصَاحِبُهُ نَجماتُ الغروبِ، ويُلْهِمُهُ مَشْرِقٌ بائِدُ

وأَبْلِغْ عيالي هنالكَ أنِّي لِعِزَّتِهِمْ - لا لَهُمْ - وَالِدُ

وأنِّي أَحِنُّ، ولكنَّني لغيرِ الهَوَى والنَّوَى سَاهِدُ

* * *

قَسَمٌ للقُدس مِنْ جيلٍ قادم

قِيلتْ هذه القصيدةُ منذ حواليْ خمسةٍ وثلاثين عاماً، تأثراً بكلمةٍ قرأتُها في جريدة «الأهرام» لمناحم بيجن، رئيسِ الوزراءِ الإسرائيلي في ذلك الوقت. قال: «ستبقى القدسُ عاصمةً لإسرائيلَ إلى الأبد». وظلَّ المعنى يترددُ طَوالَ هذه الحقبةِ على ألسنةِ خُلفائه، دون أدنى مبالاةٍ بالمفاوضاتِ الدائرةِ حولَ السلام. قصيدةٌ قديمةٌ، لكنْ جدَّدتْها المناسبة. جدَّدها استمرارُ البَغي والصَّلَفِ والعُدوانِ، وعدمُ احترامِ المواثيق. جدَّدها أنّا - فيما يبدو - لا نُخيف. ولله الأمرُ مِنْ قبلُ ومِنْ بعد.

يَلُوحُ، ها هو ذا   غَـيَّـرهُ الـهَـمُّ

يلوحُ، فَلتَنْحَسِـرْ   يـا أيُّـهـا الـغيـمُ

* * *

ها هو ذا وَجْهُها   فَوْقَ مُصَلَّى عُمَرْ

كالنجـمِ، لكنّمـا   أَوْهَى سناهُ القَدَرْ

* * *

عينـانِ أوْمَضَتا   فانطبـقَ الجَفْنَانْ

كيْ لا يسيلَ الأسَى   مِنْ وطأةِ الإذعانْ

* * *

مـا هـذه النظرةْ   كـأنـهـا جَـمْـرَةْ

ذا كِبرُهـا طاوياً   عن الوَرَى سِـرَّهْ

* * *

يا دَمعَها ارْفَضَّ لا   يذهبْ بها الكَمَدُ

دعيهِ يا أختُ، مَا   خَالٍ كَمَنْ يَجِدُ

* * *

دعِي الجَوى ينْهَلّ،   فربّما يَنْسَلّ

آدَتْكِ مسألةٌ،   وفي يديْنا الحلّ

* * *

ها هو ذا صوتُها   أذَّنَ للفجرِ

اللهُ أكبرُ مِنْ   طاغٍ ومُغْترٍّ

* * *

فلَمْ يُجِبْ محرابْ   رجْعَ الصَّدى المنسابْ

واندَاحَ مُخْتَنِقاً،   فالجُندُ بالأبوابْ

* * *

أقامَهمْ أنَّنا ... ظِلٌّ لشيءٍ غابْ

أقامهمْ عَرَبٌ ... أعياهمُ الإعرابْ

* * *

وأنَّ ثُوَّارَنَا ... محترفُو ثَوْرَةْ

وأننا - كُلَّنا - ... مُصفَّقٌ مُكْرَهْ

* * *

كانت مناظرَنا، ... فأصبحتْ حُلْمَا

يا غيبُ نَبِّئْ، تُرَى ... أَنَلْتَقي يومَا

* * *

القدسُ «كانت» لنا، ... أسْرفتِ يا أيامْ

فهلْ بها ما بنا، ... أمْ سكنَ التَّهْيامْ

* * *

بَغَى الذين بَغَوْا   قبلُ على موسَى

وظَلَّ يشتُمهُمْ   - حتى قضَى - عيسَى

* * *

لسنا الذين رَمَوْا   بهمْ إلى المنفَى

هذي مدينتُنا   ألْفاً تَلَتْ ألْفَا

* * *

لمّا قَصَدْناها   مفتاحُها لَبَّى

فما أردناها   مُسْلمةً غَضْبَا

* * *

صُلْبانُها خَرَجتْ   تستقبلُ الأَهْلا

مِنْ بَعْدِ ما عَرَفتْ   أنَّا بها أوْلَى

* * *

علـى مـداخـلِـهـا   سـيوفُنَا خَشَعتْ

وعـاهَـدَتْـنـا، فما   خُنّا، ولا خَدَعتْ

* * *

وصـاحَـبَـتْـنـا فما   كُنَّا سِوى الأبرارْ

هَـلْ أنكرتْ وُدَّنـا   نحنُ ـ حُماةَ الجارْ

* * *

هَلْ أضمرتْ نَأْيَها   كلَّا، عَدَاها العارْ

ما كان ذا رأيَها،   ذلـك رأيُ الـنـارْ

* * *

راحـتْ لهمْ يدُنا   تَـسْـعَـى فَـردُّوهـا

قُلْنا: سـلامٌ، وما   قلنا اسـتبيحوها

* * *

لَجَّ الغرورُ بهمْ   لأنهمْ قَدَروا

لأنهمْ أَمَرُوا   ونحنُ نأتمرُ

* * *

بوحِي لنا بُوحِي   يا قُبةَ الصخرةْ

أفضِي إلى الريحِ،   ولوْ بما نكرَهْ

* * *

«مَنْ أنتمُ، وَيْحَكمْ،   ما هذه السَّكْرةْ

كأنما ضُرِبتْ   عليكمُ الحَيْرَةْ

* * *

رأيتُكم كَثْرَةْ   لكنْ بلا قُدْرَةْ

رأيتُكمْ غَرَباً   فَاتَتْهمُ الغَيْرةْ

* * *

جَهِلْتمُ الإمْرَةْ   يا عاشقي الإمرَةْ

وأنتمُ أَعْبُدٌ   لا أنفُسٌ حُرَّةْ

* * *

تركتُموني هنا   أمشِي على الشَّوكِ

تاريخُكمْ وأنا   في قبضةِ الشّرْكِ

* * *

أمسلمونَ، إذَنْ   جهلتمُ النُّسْكا

مَنْ ضَنَّ بالنفسِ ما   صلَّى ولا زَكَّى

* * *

أمسلمونَ، أَجَلْ،   لكنْ بلا دينِ

حتى يُجَمِّعَكُمْ   جُرحُ الملايينِ

* * *

ضاعَ دمٌ سالَ مِنْ   أفـئـدةٍ شَـتَّـى

ألَـمْ يـئِـنْ لـكـمُ   أنْ تُحْسنوا الموتا»

* * *

قلنا: حنَانَيْكِ   رفْقاً بعينَيْكِ

يا قدسُ، يا قُدسَنَا،   لبَّيْكِ لبيكِ

* * *

سنَلْتقِي في غَدٍ،   ما دامَ في رُوحنا

برغْمِ ما تَشْكِينْ   يَسْري صلاحُ الدينْ

* * *

إنَّ الأُلَى صَنَعُوا   بِبَأْسِهِمْ حِطّينْ

لَحارِقٌ دَمُهُمْ   أفاعيَ التَّوْهينْ

* * *

ذَلَّ ترابٌ لهمْ، ... وأذعنتْ سِككُ

أمّا عزائمُنا ... فليس تُنْتَهَكُ

* * *

ما زال في الإمكانْ ... يا شَامُ يا لبنانْ

يا مصرُ يا سودانْ ... أبدعُ مما كانْ

* * *

وإنْ كَبا يومُنا ... فما كَبا الأمسُ

لَطالما غَرَبتْ ... وأشرقتْ شمسُ

* * *

لن نستكينَ ولَوْ ... تَهَوَّدَ الفَلَكُ

كلّا، ولو مَلَكوا ... أضعافَ ما مَلَكوا

* * *

«للسَّلْم قد جَنَحوا» قُلنا: «كفَــى زُورا»

لَـطـالـمـا ذبَـحـوا، وهـدَّمـوا الــدُّورا

* * *

لو أَشْفَقُوا أَشْفَقُوا على صِبا يوسُفْ

ومَـنْ أَثِـمْـنَـا إِذا قيلتْ لـديْـهِ: أُفّ

* * *

يا آلَ يعقوبَ كمْ في جَوْفِكمْ مِنْ جُبّ

يا وَرْيَ أكبادِهمْ مِنْ أينَ يأتي الحُبّ

* * *

والليلِ إذْ أَدْبـرْ، والصبحِ إذْ أسفرْ

لَـيَـطْـلُـبُـنَّ غـداً أنْ يدخلوا خَيْبَرْ

* * *

ستطمعُ السِّكينْ إذا جَرَتْ في لينْ

ولم تُثِرْ غَضَباً جنايةُ الجانِينْ

* * *

وليس فيما كانْ ما كان في الحُسْبانْ

ننسَى، وها هي ذي عقوبةُ النسيانْ

* * *

كانتْ لنا يافا كانت لنا عَكّا

والآن ماذا هما حكايةٌ تُحْكَى

* * *

ناحتْ أغانينا تقولُ واأسفا

تبكِي وتُبكينا على الذي سلَفا

* * *

«كانتِ لنا أوطانْ — - وتدمعُ العينانْ -

يا عدلُ أين الآنْ، — أين الذي قد كانْ!

* * *

لِغَيْرنا الغيطانْ، — وزَهْرُها الرَّيّانْ

لِغَيْرنا عَبَقتْ — نسائمُ الرَّيْحَانْ

* * *

نشتاقُ يا ظِلٌّ، — نشتاقُ يا فُلٌّ

نشتاقُ يا وطناً — ينْحَلُّ ينحَلُّ»

* * *

قُلنا: دَعُوا الأحزانْ — لحائطِ المبْكَى

نخشَى يَجِيءُ زمانْ — يدكُّنا دَكَّا

* * *

الـفُـلُّ لا يُـؤْسَـى   عليه والنِّسْرينْ

مـصـابُـنـا أقـسَـى   مِنْ أَرَجٍ مسجونْ

* * *

مصابُنا الألحانْ،   وتـــافِـــهٌ فـنَّـــانْ

غـنَّـى، وغـادَرَنـا   كالدودِ والجُرْذانْ

* * *

مـصـابُـنـا أَنَّـــا   هُـنَّـــا، وَلَـكِـنَّـــا

كأننا - مِنْ رِضىً   بـالـذلِّ - مـا هُنّا

* * *

قُلنا: دعوا الشكوَى،   الـعدلُ أنْ نقوَى

وابـكُـوا الكرامةَ إنْ   تبكُوا على المأوَى

* * *

كـانـت لـنـا يـافـا	كـانـت لـنـا عَـكّـا

قلنا: قضاءٌ جرى،	لـكـنْ كَـفـىَ تَـرْكـا

* * *

أمّـا الـسـلامُ فذا	لـفـظٌ بـلا مَـعْـنَـى

إذْ إنَّ كُـلّا على	—	لـيـلاهُ قـد غَـنَّـى

* * *

قلنا: ومَنْ لم يَذُدْ	عَنْ حوضِه يُهْدَمْ

والظّلمُ طَبْعٌ، فَمَنْ	لم يَـدَّرعْ يُظلَمْ

* * *

أمّا السلامُ الذي	لم يَحْمِه سَيْفُ

فهو السحابُ الذي	بـدَّدَه صيفُ

* * *

إنّـــا ســــواءٌ إذا   ما سنَحَ القَطْفُ

فما عَفَفْنا مُريدينَ،   ولا عَـــفُّـــوا

* * *

حَمَائمُ الأَيْـكِ لم   تَسْتحرم الفَتْكا

لو استطاعتْ رَمَتْ   لِـتـمـنـعَ الأَيْـكـا

* * *

يا قدسُ لنْ نبكِي،   يا قدسُ لنْ نبكِي

إنْ لم يجئْ حقُّنا   طوْعاً، فبالسَّفكِ

* * *

والنَّجْمِ إذْ ينحَلّ   مـحـمـدٌ مـا ضَـلّ

هـمُ الـعـدوُّ، غلا   عـداوُهـمْ أوْ قَـلّ

* * *

ووالـــذي أَسْـــرَى   بعَبْدِه فـــي اللَّيْلْ

لَنَرجِعَنْ قَسْـــرًا،   بِرَغْمِ أنفِ الويلْ

* * *

والتينِ والزيتونْ،   وطــورِ سِــينينا

والبلــدِ المَأْمونْ،   إنَّـــا لَـمُـوفـونـا

* * *

إنّ لدينا عملاً

عَــضَّ زمـــانٌ، ووهَــتْ أَعْظُــمٌ، وآدَ زَنْدَيَّ الــذي لا يؤودْ

صار صبِيُّ المهدِ شيخاً، كما صار هشيماً بعد ما اخْضرَّ عُودْ

وقال شَــعْرٌ شَـــابَ إنّ المَدى ضـــاقَ، وإني لاحــقٌ بالجُدودْ

أنـــا هنـــا الآنَ، ولكنْ غداً أُمســـى طعامـــاً دون شَــكٍّ لِدُودْ

فلْيخْســأ القيدُ علـــى مِعصمي؛ زائلـــةٌ يوماً جميـــعُ القيودْ

عَــضَّ زمانٌ، ودَنـــا مَغــربٌ، ولاحَ لي ماءٌ، وعــزَّ الورودْ

تُرى إلى أيـــن؟! بريدي مَضَى، فهل تُـــرى أُمْهَلُ حتى يعودْ

أحاطَ بي ســـورٌ، فلمْ تمتثــلْ لِحُكْمِهِ وَرْقـــاءُ تهْوَى الصعودْ

رقّتْ، فلمْ يَشْعُرْ بتحليقها - لَمَّا تَخَطَّتْهُ - رصاصُ الجنودْ

عاجَتْ على بَيْتِي، وألقتْ على سُكّانِهِ نظْرةَ حانٍ وَدُودْ

وحينما هاجَ الجَوَى دَمْعَها أَمَرْتُ فوراً عينَها بالجمودْ

إنّ لدينا عَمَلاً، والأسى - تبّاً لِكُتّاب الأغاني - قُعودْ

تخلّصي، وَارْتفعي، غَلْغِلي طَيَّ الكثافاتِ، وشُقّي السُّدودْ

نادَى مُنادٍ خَلْفَ تلك الرُّبى، فَاسْتَقْبِلي ما عِندهُ مِن وُعودْ

وَجَدِّدي البَيْعةَ؛ جَفَّ الثّرى، وكَفَّ حينَ البأسِ وَرْيُ الزُّنودْ

وَاسْتَرْوِحِي، إنّ خَضَاراً بَدَا، وربما لبَّتْ هَوَاكِ النُّجودْ

لكنْ إذا فاحَ شذاً فَاحْذَري أن تَقَعِي أسيرةً لِلْوُرودْ

إنّ لدينا عملاً، والذُّرى لم تُرْزَقَ إلا بتوالي الجهودْ

تَذَكَّرِي العُشَّ وأفراخَهُ، والوَبَأَ الآتِي، وَقَوْمِي الرُّقودْ

ما أَبْشَعَ المَنْظَرَ! لَوْ أنّهمْ تَصَوّروهُ لاقْشَعَرَّتْ جُلودْ

ذاتَ الجَناحَيْنِ اسْبَحِي وَاسْبَحِي، عِفْتُ الهواءَ المْيتَ عِفْتُ الركُودْ

لكنْ إذا أَغْراكِ جَوٌّ خَلا، فَلا تُطيلى في الخلاء الهُجودْ

ولا تُجيزي لِمَقامٍ عَلا - مَهْما عَلَا شأنُكِ - تَرْكَ السُّجودْ

* * *

ابن الملوَّح يَبْرأ

الخطابُ لصاحبٍ أصَابهُ غرامٌ. وبَعْدَ مجاهدةٍ برئَ منه، أو هكذا ظَنَّ، فقال راضياً عن بُرْئه «أضاءتْ، واحْتَرَقَتْ».

أَرِقْـــتَ يا صاحِبِي ومـــا أرِقَـــتْ، فلْتحْمد الله أنَّهـــا احترقَتْ

لَمَحْتَ طيَّ الدُّجَى ســـنا لهبٍ، فقلتَ لَيْلَى بمَوْهِنٍ شَـــرَقَتْ[1]

وما أضَـــاءتْ، أضَـــاءَ خُلَّبُها، وإنما نـــارُكَ التـــي بَرَقَتْ[2]

---

(1) المَوْهِن كالوَهْن نحو منتصفِ الليل، أو بعد ساعةٍ منه. وشرِقت كأشرقت.

(2) يُقال بَرْقٌ خُلَّبٌ وهو ما يكون في سحاب خُلب، أي لا مطرَ فيه، فكأنه يَخْدع.

لَمّــا كَبَتْ بالدليـلِ حيْرتُــه، ومَلّ حـــادٍ حُـــداءَه، ورَقَتْ[3]

رُقاتُنــا مُدْمني الهوانِ سُــدًى، سَــلَوْتَ لَمّا بمَوْهــنٍ طرَقَتْ

فتحــتَ باباً لأســهمٍ كَمَنتْ، لوْ لمْ تُفسّــحْ لها لَمــا مَرَقَتْ[4]

أعيذُها منكَ نظرةً صدقَتْ، أنْ تكســوَ اللحمَ أعظماً عُرِقَتْ[5]

وأنْ تُســمّي أذًى هوًى، وكفَى سَــرّاقةَ المكْرُماتِ ما سرَقَتْ

أخشَــى رمــاداً، تُحيلُه طَلــلاً .. سُــبْلٌ بكلّ الأحبّــةِ افترقَتْ

---

(3) رَقَى: استعملَ الرُّقيةَ في النفع أو الضرر، وهي عَمَلٌ يُستعانُ به للحصولِ على شيء بِقُوًى غريبة. والرُقاة جَمْعُ الراقي.

(4) مَرَقَتْ: نَفَذَتْ.

(5) عُرِق العظمُ: أُكل ما عليه من اللحم.

فــإنْ يُعاوِدْكَ هاجِــسٌ، فلقدْ أرِقْــتَ يا صاحبي ومــا أرِقَتْ

أو صَوَّحــتْ ـ لا عليكَ ـ نابتــةٌ، فلَم تزلْ ثَمَّ نبْتَــةٌ ورَقَتْ[6]

أوْ لَمْ تشــمَّ العَرارَ إذْ عَرَضَتْ نَجْدٌ، فبُؤســاكَ عادةٌ خُرِقَتْ[7]

ضَيَّقــتَ رَحْبَ المــدى إذا مَلأَتْ رحابَه ذاتُ مُسْــدَلٍ فَرَقَتْ[8]

قــد جَمَعَتْنا غرائــزٌ حَكَمتْ، أجــلْ، ولكنْ همومُنــا فَرَقَتْ[9]

---

(6) صَوّحتْ: يبِستْ. ووَرِقَ الشجرُ: ظهرَ ورقُه.

(7) العرارُ نباتٌ طيبُ الرائحة.

(8) فَرَقَ الشعرَ: سرّحه.

(9) فَرَقَتْ: فَصَلَتْ.

وثَمّ شــيءٌ يظــلّ بعــدُ إذا هَرَقْتَ مــاءَ الحيــاةِ، أو هرَقَتْ

هذا، وإلّا فنحنُ ســائمةٌ مِن بَعْدِ أن أَرْضــت المِعَى ذَرَقتْ[10]

حيالَــكَ الأفْــقُ كي تــراه، فما جافتْــه إلا نواظِــرٌ بَرِقَتْ[11]

وغارَ نجــمٌ لتُسْــتفزّ نُهًى، وَذرَّ صبــحٌ لجبهــةٍ عَرِقَتْ[12]

وانظــرْ إلى البحر، ذي ســفائنُنا كأنهــا دونَ عِلــةٍ خُرِقَتْ

ولْتسأل الأرضَ مَا ألَمَّ بها، وكيف مِن بَعْدِ سَمْحِها شَرِقَتْ[13]

فلَــمْ يَعُدْ يُنْبِــتُ الكرامَ ثَــرًى، آبــاءُ آبائِنا بــه اعْترقتْ[14]

وكيــف هُنّــا لأنّ أعينَنــا سُــودٌ، وأعيــانَ غَيْرنــا زَرِقتْ

---

(10) المِعَى مُفردُ أمعاء، وذَرَقَ: تغوّط.

(11) لمْ تقدِرْ على النظر.

(12) ذَرَّ: طَلَع.

(13) شَرِقَتْ: امتنعتْ أنْ يجريَ الماءُ فيها.

(14) اعْترقَ الشجرُ: امتدّتْ عروقه في الأرض.

تقسّــمَتْنا خرائطٌ لَعَنَــتْ رسَّــامَهَا، أَيْمنَــتْ أو اعْتَرَقَتْ[15]

خاضــتْ بأســلاكِها مُخَيِّلتــي، وقاتــلَ اللهُ أنفســاً فَرِقَــتْ

فَاسْــتَهْجِنَنْ أدمعاً شَــرِقْتَ بهــا، كأنّها بالمُريقِها شــرِقَتْ

شَــكَكْتَ لمَّا رأيتَها بَرَقتْ، فقال جَمْــرُ الغَضَى لمنْ بَرَقَتْ؟[16]

فهاكَ بعضَ اليقيــنِ، ها هِيَ ذي حصونُنا كُلُّهــا قد اخْتُرِقَتْ

سِــيَّانِ فينا جماعةٌ قَصَــرَتْ جلبابَهَا، أو جماعــةٌ مَرَقَتْ[17]

وأصبحَ الشــاعرون تَفْضُلُهمْ عِندي - وعَفواً - دجاجةٌ قَرَقَتْ

---

(15) أيمنتْ: دلّتْ على بلاد اليمن، واعترقَتْ: دلتْ على العراق.

(16) بَرَقَتْ: تزينت.

(17) مَرَقَتْ: ضلّت.

صاروا سـواءً، بُـكاةَ غـادرةٍ، أو أُمةً في ضلالِهـا غَرِقَتْ

لا كان فَنُّ الرثاءِ إنْ سَـكنتْ ريحٌ، بغيرِ المنادبِ انْخَرَقَتْ[18]

ويَشْـتُم الساخطون أَنْفُسَـهُمْ، لِيُخْطِئَ الشـتْمُ أروُساً خَرِقَتْ

لا كان فَـنُّ الهجاءِ إن خَفِيتْ جلودُ قومٍ بهِ وقـد يُرِقتْ[19]

أَطْرِقْ، ولكنْ لحيلةٍ، فَلَقَدْ ضِعْنا، وحَسْبُ الخطوبِ ما عَرَقَتْ[20]

* * *

(18) انخرقَتْ: اشتد هبوبُها. والمنادبُ جَمْعُ المندبِ وهو نَدْبُ الميت.

(19) يُرِقَتْ: أصابها اليَرَقانُ وهو مرضٌ جِلدي.

(20) يُقال عَرَقَتْه الخطوبُ أي أخذتْ منه.

ناران

«لَـكَ عَيْنٌ يَكادُ يَطْفُرُ مِنْها... - قُلْتُ: تَحْنانُها؟ - فَقَالَتْ: أَجَلْ،

غَيْرَ أنَّ الحَنيـنَ يُضْمِرُ أَمْراً»، قُلْتُ: خَيْراً؟ فَرَدَّ عَنْها الخَجَلْ

قَدْكِ لَيْلَى، فَلَيْسَ هذا بهذا، لَيْسَ جَلُّ الجِنانِ في السُّفْنِ جَلْ[21]

بَيْنَ نَـارَيَّ فَرْقُ مـا بَيْنَ هَذَيْـنِ، فَإِيَّاكِ، لا يَضِـرْكِ العَجَلْ

خَرَقَـتْ لَحْمَكِ البَضِيـضَ لِحَاظِي لِتَقَرَّى مِنْ بَعْدُ شَـيْئاً أَجَلْ

كُلَّما شِـمْتُهُ اسْـتَطَارَ فُـؤَادِي لِسَـنَاهُ سَـنَا ذَوَاتِ الحَجَلْ

(21) قَدْكِ: اسـم فعل بمعنى كفى أو يكفي، والـكاف مفعول به لقد، والجَلُّ الأولى: الورد، والأخرى الشِّراع.

وكَأنّـــي حَمَامَـــةٌ زَجَلَتْها - بُغْيَةَ الفَــوْزِ - أُمْنِيَـــاتٌ زُجَلْ[22]

خِيـفَ يا حُلْـوَةُ الطَّرِيــقُ إلَيْهِ، فتَحَامَـــاهُ شِـعْرُنا والزَّجَلْ

وزَوَاهُ - جَهْلاً وعِلْماً - نِسَـــاءٌ هَمُّهَا، كُلُّ هَمِّهَا، في التَّجَلْ[23]

ورِجَالٌ دِيسَــتْ لِتَأْبَى فَلَــمْ تَأْبَ، رِجَالٌ يُشَـــابِهُونَ الرِّجَلْ[24]

أَنْــتِ مَدْعُــوَّةٌ لأَنْ تَعْرِفِيـــهِ، ولِئَـــلَّا يُوهِـــي قُـــوَاكِ الوَجَلْ

ولأَنْ تَحْبَلِي بِمَاشٍ عَلَى الشَّــوْكِ، وإلَّا فَفِيــمَ كَانَ النَّجَلْ؟[25]

---

(22) زَجَلَ الحمامةَ: أرسلها إلى بعيد فهي زاجل، وزُجَل: جمع زُجْلَة، الجماعة من الناس، واسْتُعير للوصف ومطلق الاجتماع.

(23) زَوَى: نَحّى، والتَّجَلّ: التَّجَلِّي.

(24) الرِّجَـل: جمـع الرّجْلَة، وهــي بَقْلَةٌ تنبت على طــرق الناس فَتُداسُ، ولهــذا وُصِفَتْ بالحمق.

(25) النَّجَل: الولادة.

أَبْلِغي لَحْمَكِ البَضِيضَ اشْتِياقِي، واشْتِياقِي أيْضاً لحَرْبِ الدَّجَلْ

يَتَمَشَّــى مــا بَيْنَنا ثَابِــتَ الخُطْوَةِ، أَمَّـــا رَشَـــادُنا فَحَجَلْ[26]

للشَّيَاطِينِ حَيْثُ كُنْتِ عَزِيفٌ، أَرْهِفِي السَّمْعَ تَسْتَبِينِي الزَّجَلْ[27]

وهْوَ أَصْلٌ، ولَيْسَ في يَدِ أَيْدٍ أنْ يَقِينَا - وقَدْ عَثَرْنَا - الرَّجَلْ[28]

أَرَأَيْتِ الأَفْعَــى تَكِيسُ لِتَنْقَضَّ، فَمَنْ عَلَّــمَ الأَفَاعِي الزَّجَلْ[29]

كَـــذَبَ الفَيْلَسُــوفُ، إنَّ الذي حُدِّثَـــهُ الغَارُ لَيْـــسَ بالمُرْتَجَلْ

---

(26) حَجَلَ: مَشَى وئيداً على رِجْلٍ واحدةٍ.

(27) عَزيفُ الجِنِّ: أصواتُها، والزَّجَل هنا بمعناها.

(28) الأَيْد: القوة، والرَّجَل: إصابة الرِّجْل.

(29) تَكِيسُ الحَيَّة: تَتَحَوَّى، أي تستدير في مكانها. والزَّجْل بتسكين الجيم: الظُّلْم، وحُرِّك للقافية.

جَهِـلَ المُهْرُ، وهْوَ أَجْهَلُ مِنْهُ، فِيمَ فـــي أَيْطَلَيْهِ كَانَ حَجَلْ(30)

فاسْــتَرِيبِي إذا التَّقَدُّمُ نَادَى، قَدْ يَكُونُ البَــلاءُ في مُهْتَجَلْ(31)

غَمَزَتْ مُومِــسٌ بعَيْنٍ، فلا يَفْتِنْكِ في أَعْيُنِ الهَجُولِ الهَجَلْ(32)

أو غَــوَانٍ حَسَــدْنَهَا لمَدِيحٍ، عِجْلَـــةٌ غُوزِلَتْ فَغَــارَتْ عِجَلْ

وإذا مـــا رَأَيْــتِ قَهْقَهَةَ الغِرِّ فقُولِــي: رَأَيْتُ عَيْــراً زَجَلْ(33)

وإذا مـــا زُهِيتِ فازْهِي بجُهْدٍ، وجِهَــادٍ، لا باللَّمَى والنَّجَلْ(34)

---

(30) أَيْطَلَيْهِ: مثنى أَيْطَل والجمع أَيَاطِل: الخاصرة. والحَجْل بتسكين الوسط: بياض في رِجْلِ الفرس.

(31) مُهْتَجَل: مُبْتَدَع.

(32) الهَجُول: المُومِس، والهَجَل: غَمْزُ المرأةِ بعينها.

(33) زَجَلَ: رَفَعَ صَوْتَهُ وأَجْلَبَ.

(34) اللَّمَى: سُمْرَةٌ مُستحسَنةٌ في باطن الشَّفَة. والنَّجَل: اتِّساعٌ مُستحسَنٌ في العَيْن.

بَزَّ كُلَّ الوُجُوهِ عِنْدَ اكْتِنَاهِ الحُسْــنِ وَجْهٌ إذا انْتَصَرْنا بَجَلْ(35)

زَوِّدِينـــا إذَنْ بما سَــوْفَ يَبْقَى مَا بَقِينَا، ويَسْــتَدِيمُ الرُّجَلْ(36)

وإذا مـــا نُجِلْتُ يَوْمـــاً فقُولِي - لِتُعَزِّي أَحِبَّتِـــي - كَمْ نَجَلْ!(37)

واحْبِسِي الدَّمْعَ وادْفِنِينِي سَرِيعاً، وأَعِينِي سِوَايَ كَيْمَا يُجَلْ(38)

نُصْبَ عَيْنِي فَجْــرٌ يُوَارِيهِ فَجْرٌ دَبْرَ عَيْنِي، مُؤَلَّفٌ، مُفْتَجَلْ(39)

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ، ثُمَّ هَلْ، آتِيَنْهُ؟ أَمْ يَحُولَنْ مِنْ دُونِ ذاكَ الأَجَلْ

* * *

---

(35) بَجَلَ: فَرِحَ.

(36) الرُّجَل: جمع رُجْلَة بضم الراء وهي الرُّجولة.

(37) نُجِلْتُ: طُعِنْتُ، والنَّجْلُ الفِعْلُ.

(38) يُجَلّ: يُجَلِّي أيْ يَسْبِق، وهو في الأصل من وَصْفِ الفَرَس.

(39) دَبْرَ عَيْنِي: خَلْفَها، أيْ لا يُرَى، عكس نُصْبَ. ومُفْتَجَل: مُخْتَلَق.

وَاضِحٌ

وَاضِحٌ أَنَّهُ هُنَاكَ، وأَنَّا فِي غَدٍ رُبَّمَا نَكُونُ الفَرَائِسْ

فَمِنَ العَقْلِ أَنْ نَـرَاهُ، وإلَّا فكَأنَّا نَقُولُ دُسْ لِلدَّائِسْ

وَاضِحٌ أنَّنَا سَنُرْمَى جَمِيعاً، فلْيُفَكِّرْ مَرْؤُوسُنَا والرَّائِسْ

ولْتُطامِنْ مِنْ دَلِّها ذاتُ دَلٍّ، ولْيَدَعْ مَيْسَهُ المُغَفَّلَ مائِسْ

ولْيَدَعْ كِذْبَهُ مُهَوِّنُ فَـرْقٍ فُرِقَتْهُ مَسَاجِدٌ وكَنَائِسْ

* * *

فَتْوَى لكنَّها مَرْفوضة

أَحِــنُّ، يُرَفْــرِفُ طَيْراً بصَــدْرِيَ عِنْــدَ الغُدُوِّ وعِنْــدَ المَبِيتْ

أرَاهــا هُنالِــكَ، تُوحِشُــنِي كُلَّ يَــوْمٍ شَــوَارِعُكُمْ والبُيُــوتْ

فَــلا تَحْسَــبُونِي إذا ما نَسِــيتُمْ لأنَّ البِعادَ اسْــتَطَال نَسِــيتْ

أَتَانِــيَ صَوْتٌ فَخِلْتُ - ولسْــتُ الذي قدْ عَنانِــيَ - أنِّي عُنِيتْ

ولَمْ يَــدْرِ إذْ فَــرِحَ الكَرَوانُ ولَعْلَــعَ في الصُّبْحِ أنِّي أَسِــيتْ

طَلِيــقٌ، يُكَلِّــمُ خِلَّانَــهُ وأُكَلِّــمُ نَفْسِــي، خَــلَا وشَــجِيتْ

ولَــمْ يَــدْرِ وَهْو يبــثُّ الهَوَى ويَفْتَــنُّ في البَثِّ أنِّــي هَوِيتْ

ومـــا بِيَ أَنِّي - وإنْ كان وَعْراً على المَرْءِ حَزٌّ الجَفَاءِ - جُفِيتْ

وما بِــيَ وَجْهٌ مَلِيــحٌ، وفَرْشٌ وَثِيــرٌ، ولَيْلٌ، ومِسْـــكٌ فَتِيتْ

ولَكِــنَّ مــا بــيَ أنِّــي مُــرادٌ، ومُفْتَقَــدٌ، ثُــمَّ أنِّــي نُفِيــتْ

إلــى أَبَــدٍ كُلَّمــا شِــمْتُهُ تَنَــاءَى، وخُلِّفْــتُ نِضْــواً بَهِيتْ

وأَظْلَــمَ، أَرْخَى السُّــدولَ عليَّ، فلمْ أَرَ شَــيْئاً كأَنِّــي عَمِيتْ

أَهَــذي النِّهايةُ يا زائِري، أَقُــدِّرَ لي الْعَيْشُ فــي بَطْنِ حُوتْ

بَقِيــتَ لأَمْــرٍ، وأمَّــا أنــا فقُــلْ لــي برَبِّــكَ فيــمَ بَقِيــتْ

وُقِيــتُ، وأَحْمَــدُهُ أنْ وُقِيــتُ، ولكــنْ لأيِّــةِ جَــدْوَى وُقِيتْ

إذا كُنْـــتُ في كُلِّ يَــوْمٍ أَمُوتُ، فقُــلْ لي لمــاذا إذَنْ لا أَمُوتْ

ســيُطْبِقُ يَوْمــاً، فماذا لَــوَ أنِّيَ أَسْــلَمْتُ سَــقْفِيَ للعَنْكَبُوتْ

وفِيــمَ الحَيــاةُ إذا طَرَحَتْنِي طُمُوحاً تَوَلَّى، وشَــمْلاً شَــتِيتْ

كَــزِقٍّ رِيَــاحٍ، فَــلَا أَنَــا رَاجٍ، ولا أنــا كَافٍ إذا مــا رُجِيتْ

لَقًــى، ذا يَدَيْــنِ، وذا قَدَمَيْــنِ، ولَكِــنْ لَقًى، كَهَشِــيمٍ بَتِيتْ

وَلِيــتُ، وهَأَنَــذا مُوثَــقٌ، يُعَجِّزُنِــي القَيْــدُ عَمَّــا وَلِيــتْ

فَيَــا نَفَســاً دَاخِــلاً خَارِجاً فِيــمَ أَنْــتَ لَعَمْري إذا مــا عَيِيتْ

ويــا قَائِــلاً إنَّنِــي مُذْنِــبٌ خَسَــأْتَ، وسُــقِّيتَ مما سُــقِيتْ

عَلِمْتَ، ولَكِنْ حَسَــدْتَ الضِّيَاءَ، وأَغْرَاكَ بــي أَنَّنِي قَدْ رُمِيتْ

أَهَــذِي النِّهَايَةُ يا زَائِــرِي، أَقُدِّرَ لى الْعَيْشُ فــي بَطْنِ حُوتْ

أَلَمْ يَبْقَ لِي غَيْرُ أَنِّي دَبَبْتُ، وأَنِّي أُمِرْتُ وأَنِّي نُهِيتْ
وأَنِّيَ أَمْسَيْتُ أَضْغَاثَ حُلْمٍ، وأَنِّيَ أَصْبَحْتُ بَطْناً وقُوتْ
وأَنِّيَ بَكَيْتُ على طِفْلَةٍ بلا سَنَدٍ خُلِّفَتْ، وبُكِيتْ
أَلَمْ يَبْقَ لي غَيْرُ أَنِّي أُحِسُّ بِأَنِّي حُرِمْتُ وأَنِّي ضَنِيتْ
أَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الجَنِينُ، وإِلَّا شَوَارِعُ مَذْكُورَةٌ وبُيُوتْ
أَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ادِّكَارُ مَنَاظِرَ طَيَّ الفَنَاءِ، إِذَنْ قَدْ فَنِيتْ
وتَبّاً لصَبْرِي إذا ما رَضِيتُ بأَنِّي غُذِيتُ وأنِّي كُسِيتْ
وأَنْ أَتَقَلَّبَ بَيْنَ رِجَالٍ كَأَعْجَازِ نَخْلٍ، كَدَوْمٍ نَحِيتْ
صَهٍ أَيُّها الواعِظُونَ ودُلُّوا صَدِيّاً على المَاءِ، إِنِّي صَدِيتْ

حَنَنْتُ لرَضْوَى، وأَوْلَى بكُمْ إذا لَمْ تَشُقُّوا الطَّرِيقَ السُّكُوتْ
أَشِيرُوا عَلَيَّ، ولَكِنْ خُذُوا بيَدَيَّ لأَشْعُرَ أَنِّي رُعِيتْ
وأَمَّا الكَلَامُ فَمَحْضُ هَوَاءٍ، وعَنْهُ وعَنْكُمْ غَنِيتْ
إذا لَمْ يُنِلْنِي الدُّعَاءُ الرَّبِيعَ فَفِيمَ إِذَنْ دُعِيَتْ عَشْتَرُوتْ
أَزِيحُوا الطِّنِينَ فَإِنِّي مَشُوقٌ إلى رَكْعَةٍ رُكِعَتْ في قُنُوتْ
دَعُونِي وهَمِّيَ، أَكْبَرُ مِنْ مَوَاعِظِكُمْ هَذِهِ المَرْمَرِيتْ
دَعُونِي دَعُونِي إلى خَلْوَتِي، وإِنِّيَ فِيها لَفِي مَلَكُوتْ
ورُبَّتَمَا انْفَتَحَتْ كُوَّةٌ، وجَاءَ الحَيَا فَجْأَةً ورَوِيتْ
ورُبَّتَمَا هَبَطَتْ صَهْوَةٌ وطِرْتُ عَلَيْها إلى حَيْثُ شِيتْ

أَهَـذِي النِّهَايَـةُ يـا مُفْتِيـاً يُزَيِّـنُ لِـي جَاهِـداً أنْ أَمُوتْ

ومَـنْ للمَـكَارِمِ، مَـنْ للعَظَائِـمِ، مَنْ للعِيـالِ إذا مـا بَلِيتْ

أَهَـذِي النِّهايـةُ، كَلَّا، وتَبّـاً لِهَـذا المَجَازِ وهَـذِي النُّعُوتْ

أَهَـذِي النِّهايـةُ، كَلَّا، صَهٍ، سَـأَحْيَا، سَـأَصْبِرُ مَهْما لَقِيتْ

وما جَدَّ شَـيْءٌ، فَلَيْسَ الذي أَصْطَلِـي الآنَ أَوْجَعَ مِمَّا صَلِيتْ

سَـأَحْيَا، سـتَعْصِمُنِي مِرَّةٌ تَعَافُ التَّشَـكِّي، وبَأْسٌ صَمُوتْ

سَـيَنْفَلِقُ الصَّخْرُ يَوْماً لِأَخْطُو على غَيْـرِ هَذا التُّرَابِ المَقِيتْ

ومـا زَالَ، ما زَالَ عَزْمِي مَعِي، ولَيْـسَ بِضَاوٍ إذا ما ضَوِيتْ

وسَـوْفَ يَرانـي غَـدِي مِثْلَما رُئِيـتُ، وأَصْلَبَ ممـا رُئِيتْ

وسَـوْفَ يَرَانِي لِـدَرْكِ المَعَالِي، ولَيْسَ لِما آدَنِي، أَسْـتَمِيتْ

وسَـوْفَ يَرَانِي ذُوُو الجَبَرُوتِ، وإنْ كَاثَرُونِـيَ، ذا جَبَرُوتْ

وإن خُشِـيَ النَّاسُ قَشّـاً فإنِّي مَضَـاءً وحَدّاً وجِدّاً خُشِـيتْ

بُنِيـتُ، فكَيْـفَ أُهَدِّمُ نَفْسِـي وقَدْ شَـابَ دَهْرِيَ حَتَّـى بُنِيتْ

ومَـاذا أَقُـولُ إذا عَاتَبَتْنِـي عُيُونٌ علـى اليَأْسِ لَمَّـا قَذِيتْ

وماذا أَقُـولُ لرَجْعِ الصَّدَى وهْوَ يَـدْوِي: تَخَاذَلْتَ لَمَّا ابْتُلِيتْ

سَـأَحْيَا، سَـأَحْيَا، سـأَحْيَا، لأنَّ هُنالِكَ - تَحْيا - شُجَيْرَةَ تُوتْ

لِأَجْلِـكِ رَضْوَى أَبَيْتُ السُّـقُوطَ، لِأَجْلِكِ يـا أُمَّ رَضْوَى قَوِيتْ

ولَـوْ زَارَنِـي بُكْـرَةً كَـرَوَانٌ سَـأُخْبِرُهُ أنَّنِـي قَـدْ حَيِيتْ

* * *

يا فَاطِمَةُ اعْمَلِي

أَتَانِـــيَ أنّ عِيَالِـــيَ جَاعَتْ، فقُلْـــتُ: وجَاعَتْ عِيَـــالُ العِراقْ

أَقِلِّـــي الأَسَـــى أُمَّ رَضْوَى، دَعيـــهِ، فَمَا فِيـــهِ للتَّابِعيهِ خَلاقْ

وفي البَيْـــتِ نَافِذَةٌ، فافْتَحيهـــا، أَخافُ عَلَيْكُـــمْ أَذَى الِانْغِلاقْ

لـــذَرْفِ الدُّمُـــوعِ، ولكنَّهـــا لجَـــوْبِ المَجَاهِلِ هَـــذِي المَآقْ

حِيَالَكِ دُنْيَا، فَســـيحِي وجُوسِـــي، لِكَيْلا يَضِيقَ علينا الخِناقْ

مُوَطَّـــأةٌ، لا لجُحْـــرٍ وضَـــبٍّ، ولكَـــنْ لِرَاقِيَـــةٍ ولِـــرَاقْ

ولا تَزْهَدِي، أَخْطَأَ الوَاعِظُونَكِ، إنَّ انْسِـــحَابَكِ مِنْها انْسِـــحاقْ

وَلَا بُدَّ مِنْ تَعَبٍ، فاتْعَبِي، ولَا بُدَّ مِنْ عَبَراتٍ تُراقْ

ولا يَثْنِيَنَّكِ خَوْفُ المَوَامِي، وبُعْدُ المَرَامِي، وكُثْرُ المَشَاقْ

فما نَحْنُ إلا خِشاشٌ ودُودٌ، إذا فَلَّ مِنْ عَزْمِنا الِاعْتِياقْ

حِيَالَكِ دُنْيَا، ولكنْ حَذارِ مِنْ شَبَكِ الكلماتِ الرِّقاقْ

سِيَاسِيَّةٌ، فاحْذَرِي كَيْدَهَا، وأَعِدِّي لَهُ قَبْلَ كُلِّ اتِّفَاقْ

عَدُوٌّ لَنَا مِنْ قَدِيمٍ، جَميعاً، جَميعاً، عَدُوٌّ ليَوْمِ التَّلاقْ

مُقَرِّرَةٌ أَنْ نَذِلَّ لها، أو نَزُولَ كما زَالَ عَصْرُ النِّياقْ

حِيَالَكِ نَارٌ تُعَدُّ، ونَحْنُ جَميعاً يُرَادُ لَنَا الِاحْتِراقْ

لِيُدْفَنَ تَارِيخُنَا في البَقِيعِ، ويَطْوِي اللَّيالِي الخَوَالِي مَحَاقْ

حِيَالَكِ دُنْيَا فَمُدِّي المَدَى، ولَسْنَا بِشَيْءٍ إذا هُوَ ضَاقْ

إذا كَانَ جُوعُهُمُ لا يُطَاقُ، فَكَمْ مُنْكَرٍ حَوْلَنَا لا يُطَاقْ

سَيَأْتِي الطَّعامُ، فماذا لَدَيْكِ إذا لَمْ يَعُدْ شَاغِلاً الِارْتِزاقْ

كَفَى حَزَناً، وانْظُرِي، واغْضَبِي على مَنْ أَجَاعُوا عِيَالَ العِراقْ

وشَدُّوا عَلَيْنَا جَميعاً - فبَكِّي لِهَذا إذا ما بَكَيْتِ - الوَثاقْ

كَفَى حَزَناً، وانْظُرِي، واغْضَبِي، أَمَامَكِ - لَوْ تَنْظُرِينَ - الوَهَاقْ

ونَحْنُ جَميعاً نُسَاقُ كَأَنَّا خِرَافٌ إلى ذَابِحِيها تُسَاقْ

كَفَى حَزَناً، وأَعِدِّي العِيالَ، لِنَكْسِبَ مِنْ بَعْدِ خُسْرِ السِّباقْ

سُبِقْنَا، وفي الوُسْعِ - لا تَسْمَعِي لِأَغْرِبَةٍ نَعَقَتْ غاقِ غاقْ -

تَدارُكُ ما فَاتَنَا واللَّحاقُ، وجَوْبُ المَجَاهِلِ بَعْدَ اللَّحَاقْ

مَتَى تَلِدُ الأُمَّهَاتُ وَلِيداً إلى غَيْرِ ما يَمْلَأُ البَطْنَ تَاقْ

* * *

رسالةٌ إلى صاحب عاشق

أُنشـــدت هذه القصيدةُ في دار العلوم، واتفق أن كان يومُ إنشادها موافقـــاً لانقضاء خمســـمئة عام على ســـقوط غرناطـــة في 1492م. فقدّمت لها بالكلمة التالية:

فـــي مثل هـــذه الأيام، قبل خمســـةِ قرونٍ، ألقى آخـــرُ ملوكنا في الأندلـــس نظرتَه الأخيرةَ علـــى الوطن الغارب الـــذي ظل في يدنا ثمانيـــةَ قرون، غَلَبَهُ الانفعـــالُ؛ فبكى، لكنَّ أمه كان لديها انفعالٌ من نوع آخر، التفتت إليه قائلة:

اِبْكِ مثل النساء مُلْكاً مُضَاعاً *** لم تحافظ عليه مثلَ الرجالِ

إلى شهدائنا هناك الذين سقطوا في ساح المعارك وشهدائنا الذين

ظلـوا في مواطنهم بعد آخر معركة؛ ليُذبحوا في بيوتهم أو ليُجبروا على التَّنَصُّر.

إلــى أولئـك المجبرين على ترك دينهم، الذيـن كان أحدهم يُلَقَّنُ كلمــاتِ النصرانية فَيَفْجَأُ القسـيسَ بكلمات أخـرى: (لا إله إلا الله، محمد رسـول الله). إلى شهدائنا في الأندلس، وفي كل أندلس قادمة إذا قـدر الله، حتى يأذن سـبحانه بالفرج، ويجيئنـا بالنصر؛ لِيَدْخُلَ خَلْقُهُ في الدين أفواجاً.

بانتْ سُـعَـادُ فلا يُتْلِفَنْ فُـؤادَكَ بَيْنُ

نـريـدُهُ لِـلَـيَـالٍ أَقْـسَـى، أراهـا تدنو

حَنَّتْ حناياكَ لما مضى من الليل وَهْنُ

وأنتَ سهرانُ تَسْتَنْطِقُ الخيالَ، تُجَنُّ

فهل أتـاك حديثُ الطُّغاةِ لما اطمأنوا

وقيل جَـدَّ جديدٌ، وخالسَ الغيبَ جِنٌّ

وكـاد يُلقي عصاهُ بعد التَّرَحُّلِ كَـوْنُ

كـأنَّ شَمْسَكَ هَـذِي ما ذَرَّ منها قَـرْنُ

كأنَّ أَمْسَكَ دارٌ عَفَتْ، ورَسْـمٌ، ودِمَنُ

حَنَّتْ حَناياكَ حتى أَبْدَى الصبابةَ جَفْنُ

فهل أتـاك حـديـثُ الجياعِ لما حَنُّوا

وأنَّ ما هَـاجَ تَحْنَانَـهُمْ: دقيقٌ وسمنُ

رَمَى رماةٌ فَقُلْنَا: لا بأسَ، شُنُّوا وشُنُّوا

وإنما قـالَ مِـنْ قَبْلِ أنْ نقولَ: الدَّيْنُ

وإنما قالَ مِنْ قَبْلِ أنْ نقولَ: الجُبْنُ

سَنُّوا لَنَا، وَلَعَمْرِي لو نَرْتَضِي ما سَنُّوا

لسوف نغدو هُنُوداً حُمْراً، خَلَاكَ الأَفْنُ

يا صَاحِ ما جَدَّ شيءٌ، وإنما جَدَّ مَيْنُ

سَيَدْفَعُ الناسَ ناسٌ، وغيرُ ذلك دَهْنُ

ومنذُ كان زمانٌ والناسُ ذئبٌ وضأنُ

ولن يزولَ من الأرض عَدْلُهُمْ والغَبْنُ

إلَّا إذا جاءَ كُلَّ الذي عليها الحَيْنُ

أمَّا لماذا؟ فَشُغْلِي بِذَا وشُغْلُكَ وَهْنُ

والخَيْرُ عند المَوَاضِي، عند العَوَالِي تُسَنُّ

لِيَجْرِيَ الدمُ نَهْراً، أَوْ يَتَّقِينا الطَّعْنُ

الخَيْرُ شَمْلٌ ولَمٌّ، ومَهْيَعٌ مُسْتَسَنُّ

وأنتَ في الأصل جُزْءٌ، ماءٌ وصُلبٌ وهَنُّ

أبٌ، ولكنَّكَ ابْنٌ، وجَدُّ أجدادكَ ابْنُ

مالِي رَأيتُكَ تُنْمَى فَيَفْجَأُ الحَبْلَ خَتْنُ

وهَلْ يُقالُ لِغُصْنٍ أَهْوَتْهُ فَأْسٌ غُصْنُ

تَمَيَّزَ النّاسُ فانظرْ مَنْ في الخلائقِ نحْنُ

حَالَ الزّمانُ وحُلْنا، والعَيْشُ صَفْوٌ وأَجْنُ

قد جَمَّعَتْنَا بَـوَادٍ، وفـرَّقَـتْـنـا مُـدْنُ

كانتْ قُرَيْشُكَ أُمّاً، فَأَيْنَ ذَاكَ الحِضْنُ

أَتَى سَمَرْقَنْدَ فَخْذٌ، وحَلَّ طَنْجَةَ بَطْنُ

ثُمَّ انْتَهَيْنَا كأنَّ الرِّجَالَ في الرِّيحِ تِبْنُ

وليس هذا بِـرَأْيٍ، الـرَّأْيُ أَنْـفٌ يَصِنٌّ

وَأَنْ تُفَدِّيَ خِدْناً، وَأَنْ يُفَدِّيكَ خِدْنُ

صَدَّ العَوَاصِفَ دَوْحٌ، وَوَاجَهَ القِرْنَ قِرْنُ

وَالخَيْرُ شَمْلٌ ولَـمٌّ، وَقِبْلَتَانِ، ورُكْـنُ

فَصُمْ وصَلِّ، وَأَحْرِمْ، وَلْيَمْحُ رَيْبَكَ يَقْنُ

وَاكْـفُـرْ إذا شِئْتَ لَكِنْ محمدٌ لا يُـزَنُّ

لَوْ زَالَ؛ زَالَ عن البَرِّ والغَوِيِّ المِجَنُّ

يا صَاحِ حَالَ زمـانٌ، وغَافَلَتْنَا السِّنُّ

فَأَيْنَ أنتَ وأَيْنِي في العَالَمينَ ونَحْنُ

رَأى بَيَاضُ النَّصارى أنَّ الخَسَاسَةَ لَوْنُ

وأنَّ حِبْرِي لِأنِّي لِلْوَاحِدِ الفَرْدِ أَعْنُو

ذَنْـبٌ يُعَاقَبُ فِيهِ طِفْلٌ وشَيْخٌ مُسِنُّ

فكيف يَطْلُعُ يـومٌ تَضُمُّنا فيهِ عَـدْنُ

وكيف يَجْزِي هَوَانَ المُهَانِ سَلْوَى ومَنُّ

متى رأيـتَ حِـذَاءً على تُـرابٍ يَحْنُو

حَـالَ الـزَّمَـانُ، وَقَـدْ آنَ للشَّهَادَةِ أَيْنُ

فـلا تُـكَـنِّ إذا قالت الكرابيجُ: كَنُّوا

وَإِنْ يَخُنْكَ مَلِيكٌ فَقُلْ: أَجَلْ هُوَ خَوْنُ

أَوْ قِيلَ: عَهْدٌ جديدٌ، فَقُلْ: دُجَىً ودُجُنُّ

وَكَالشَّمَالِ جَنُوبٌ لَوْ أَضْمَرَ الشَّرَّ جَوْنُ

يا صَاحِ غَنَّتْ قِيَانٌ لِكَيْ يُرَاخِيكَ لَحْنُ

فلا يُشِعْ فِيكَ أَمْناً ذاكَ الخَرِيرُ الأَغَنُّ

ولا يُشِعْ فِيكَ أَمْناً في البَرْدِ صُوفٌ وقُطْنُ

ولا يُشِعْ فِيكَ أَمْناً كَأْسٌ، ونُقْلٌ، وكِنُّ

رَمَى رُماةٌ فَولَّى لَمَّا ذَلَلْنَا الأَمْنُ

والأمرُ للهِ، يَكْبو الجَوادُ وَهْوَ رِفَنُّ

وإنْ أُحِمَّ قضاءٌ، فليس للخلق إذْنُ

بانتْ سُعَادُ، وباتتْ بَغْدادُ وَهْيَ تَئِنُّ

عَنَّاكَ حُبٌّ وعَنَّى رَبَّ العِراقَيْنِ ضِغْنُ

وبَيْنَ حُرٍّ وعَبْدٍ - يا ابْنَ الأَعِزَّةِ - بَوْنُ

خَلاكَ ذَمٌّ، يَذِيمُ الرِّجَالَ أَنْ يَرْفَنِئُّوا

وَهُمْ يَرَوْنَ عَدُوّاً في ذَبْحِهِمْ يَفْتَنُّ

تَبْدو السَّكَاكِينُ حِيناً، وحِينَةً تستَجِنُّ

أَبْلِغْ سُعَادَكَ أَنَّ السَّرِيرَ قَيْدٌ وسِجْنُ

أَنَّا وُجِدْنا لِمَعْنًى غَبَاهُ فَرْجٌ وبَطْنُ

أَنَّ النَّوَافِذَ وَعْدٌ، جَنَى تَوَالِيهِ أَجْنُ

شُقَّتْ فِجَاجٌ، فهذا سَهْلٌ، وذَلِكَ حَزْنُ

لِيَسْتَثِيرَ خَيَالَ الوِدْيَانِ قَنٌّ ورَعْنُ

وغَيْمَةٌ كَنَدِيفٍ شَقَّتْ، وأخرى دَجْنُ

شُقَّتْ فِجَاجٌ لِيَجْتَازَ ظاعِنُون وظُعْنُ

وتَمْخُرَ البرَّ والبحرَ والسمواتِ سُفْنُ

وتَحْتَفِي بِطُيورٍ غِبَّ الجُهَيْدَى وُكْنُ

يا صَاحِ غَنَّتْ قِيَانٌ لِيَسْتَمِيلَكَ مَجْنُ

وعَلَّمَ البنتَ درساً في كيف تَعْرَى تِقْنُ

والرَّقْصُ إنْ كانَ فنّاً فَصَوْنُ عِرْضِكَ فَنُّ

وَلَدْتَ لِلْعَارِ بِنْتاً لِغَيْرِ حِلٍّ تَرْنُو

أَبْلِغْ سُعَادَكَ أَنَّ العَفَافَ أَيْضاً حُسْنُ

دَعَاكَ في شَفَتَيْهَا، وَوَجْنَتَيْهَا، دُهْنُ

وسوف يَبْقَى طِبَاقٌ، مَهْمَا اسْتَفَاضَ الرَّيْنُ

حَتَّى القِيَامَةِ، يَبْقَى زَيْنٌ، ويَبْقَى شَيْنُ

أَفْدِي ظِبَاءَ فَلاةٍ لم يُغْوِهِنَّ الرَّطْنُ

ولا تَخَاضَعْنَ كَيْ يَسْتَبِيكَ جَرْسٌ لَيْنُ

ولا تَثَنَّى إذا ما سِرْنَ القَوَامُ اللَّدْنُ

يا صَاحِ حَالَ زمانٌ، وغَافَلَتْنا السِّنُّ

ورَاحَ يُذْوِي لِأَمْرٍ وَجْهِي ووَجْهَكَ غَضْنُ

فلا تَشَكَّ، تَدَنَّى حُزْنٌ، وأَشْرَفَ حُزْنُ

بِنَاءُ فِرْعَوْنَ ذَرٌّ، وطُورُ سِينِينَ عِهْنُ

وليس إلَّا سَدِيماً خَصْرٌ، ونَهْدٌ، وعَيْنُ

فَاسْتَمْسِكَنَّ إلى أَنْ يَضِيقَ بالماءِ شَنُّ

لَسْنا الذين حُشينا قَشّاً، وَإِنْ رُضَّ مَتْنُ

لَسْنا زِقَاقَ رياحٍ، لَسْنَا ذُبَاباً يَدِنُّ

وَإِنْ يكنْ لَكَ أمسٌ، ففي غدٍ لَكَ شَأْنُ

نَحْنُ الذين إذا ما دعا الرَّدى ما ضَنُّوا

صَلَّوْا وصَامُوا، وَلَكِنْ عند الكريهةِ جُنُّوا

سَاقَتْ لَنَا حَيْثُ تَهْمِي خَرَاجَهُنَّ المُزْنُ

إنِّي لَمَحْتُ جَنيناً تحتَ الرَّمادِ يَعِنُّ

اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ، ولَنْ يُحِبَّكَ لُكْنُ

والنُّبْلُ صَعْبٌ فَأَيَّانَ تَسْتَقِيمُ اللُّسْنُ

يا صَاحِ أَحْسِنْ، فَبُغْيَا الكَمَالِ فرضٌ عَيْنُ

ولا تُهَوِّنْ مَقَالَ الخَلِيلِ: خَبْلٌ، وخَبْنُ

العَبْقَرِيَّةُ وَحْيٌ، والعَبْقَرِيَّةُ وَزْنُ

* * *

مناجاةٌ للمتنبّي

أيُّهـا الحالـمُ العظيـمُ تذكَّرْتُـكَ لَمَّـا لَـمْ أُلْفِ حولـيَ خِلا

هَبـطَ الليلُ، أينَ مِنّـي بَوَادٍ جُزْتَها كالشـهابِ يـا نجمُ لَيْلا

مـا الّذي كنـتَ تبتغي؟ ما خَبِـيءٌ أبَت النائبـاتُ أنْ يتجلّى

هَبَـطَ الليـلُ فادَّكَرْتُكَ أمْسـاً قيـلَ: وَلّى، وقلتُ: لـمْ يتولَّ

وأنَا مُهملٌ كـزِقٍّ رياحٍ، ليس عِندي إلا «عسـى» و«لَعَلَّ»

وَلَـوَ أنَّ الأحجـارَ تعقلُ فجَّـتْ فجوةً في الجـدارِ كيْ أتدلَّى

لِتُلاقِي خَيْلِــي ورَجْلِي - وقدْ عاد إلينا التتــارُ - خيْلاً ورَجْلا

أَفَهــاذِ أنــا؟! تقــولُ قوافيــكَ لمنْ آثــروا الســلامةَ: كلا

ضــلَّ باغي النَّجاةِ بالجبْن ضَلَّ؛ كلُّنا في نهايةِ الشــوطِ قَتْلى

هبــطَ الليــلُ فادَّكَرْتُ بــلادِي، ولســانِي، وخَنجراً مُسْــتلا

يســتعينُ الدُّجَى لِيَبْقُــرَ عَمْداً أُمّــةً بالكواكبِ الزُّهْــرِ حُبْلَى

خَدَعتْها ريحُ الشَّــمالِ فباتتْ في الهواء العليلِ تَنْشَــقُ سُــلا

قطعــةً قطعةً تخــورُ قُواهــا، أَيِّمــاً حِينــةً، وحينــاً ثَكْلى

شَــغَلتْها عن المصيرِ أهازيجُ، وســوقٌ تضِــجُّ زمْراً وطبْلا

ورجــالٌ صَلّتْ وصامتْ وقالتْ - فــي طُمأنينةٍ - وَجَدْنا الحلا

قلــتُ: هَاكُمْ كتابَنَــا فاقْرؤوهُ، إنمــا البِرُّ أنْ تكونــوا أعْلَى

هبــطَ الليــلُ، بَيْــدَ أنّ صباحــاً في قوافيــكَ لا يــزالُ مُطِلا

وسَــيَنْداحُ - أَنْبأتْنِي ضُلوعي أنْ سَــيَنْداحُ في ضحًى لا يَبْلَى

* * *

مناجاةٌ لعبد اللطيف

رحم اللهُ أبا همّام، أما بعد،

فعندي قبل البدء تنبيهانِ يخصّانِ القصيدة. الأول أني استوحيت أبياتاً أربعةً وقعتُ عليها وأنا أقلّب حماسة أبي تمامٍ لمن دعاها «صفيّةَ الباهليةَ» ترثي أخاها الوحيدَ أو الواحدَ كما قالت.

تقول:

كُنا كغصنين في جُرْثُومةٍ سمقَا حيناً بأحسنِ ما يسمو له الشجرُ[40]

حتى إذا قيل قد طالت فروعُهما وطاب فيئاهما، واستُنظر الثّمرُ

---

(40) في جرثومةٍ: في أصْل شجرة. وسَمَقَا: ارتفعا.

أَخْنَى على واحدي ريبُ الزمان وما يُبقي الزمانُ على شيءٍ ولا يَذَرُ

كنا كأنجـمِ ليلٍ بينها قمـرٌ يجلو الدّجَى فهوَى مـن بيننا القمرُ

والبيتُ المسـتوحى هو الثالث: أخنى على واحدي، ووجه الشبه أن صاحبـي كان عندي كأنه أخ وحيـد. أما التنبيهُ الآخر فهو كلمة جاءت في البيت الأول من مناجاتي للراحل العزيز، ربما احتاجت إلـى بيان. أقول: «قُلْ للنفاةِ خسـأْتم». والنفاة جمـعُ نافٍ، وهُم نفاة القَدَر.

قُـلْ للنُّفاةِ خَسَـأْتُمْ؛ طاب مُرْتَحَلِـي، وفَوْقَ كلِّ جهـولٍ منكمُ القَدَرُ

ولـمْ أزُلْ، زال قيدٌ راسـفٌ أبداً فيهِ، علـى رغْمِ كلِّ منهمُ البَشَـرُ

ولم أزُلْ، زال وِقْرٌ آدَني زمنـاً وانزاحَ، فانزاحَ عني الويْلُ والوَضَرُ

وطاب مُرْتبَعي، حوْلي هنا شـجرٌ، حوْلي هنا خضِرٌ، حوْلي هنا زَهَرُ

وباسـقاتٌ إذا ما شـئتُ طيّعـةٌ، فلو رغبـتُ ادّنَى مِن كفّـيَ الثمرُ

هنـا فواكـهُ أنـواعٌ، ومُتّكأٌ، وإنْ نشـأْ نُصِبـتْ مِن تحتنا سُـرُرُ

هنا رياحينُ أنواعٌ، هنا أرَجٌ، يَضُوعُ مِن حيثُ لا يُدْرَي وينتشرُ
هنا كذلك غاباتٌ، هنا دَغَلٌ - لكنْ أمينٌ - هنا ضالٌ، هنا سَمُرُ
وطارَ طيرٌ هنا، لا يشتكي سَغَباً، واستقبلتْه حَفِيَّاتٍ بهِ وُكُرُ
أرى كذلك حوْلي ها هنا نُهُراً، تهتزٌّ، تخضَرٌّ في أثباجِها جُزُرُ
ومُجْملُ القولِ أنْ لا شيءَ عندكمُ إلا - هُنَا - هُوَ خيْرٌ، وَهْوَ مُبتكَرُ
فاستغفروا اللهَ، ذا خيرٌ لكمْ أبداً مِن أنْ يُزَيِّنَ ما جئتمْ به البَطَرُ

نقولُ جِئْنا ورُحْنا لا المجيءُ بنا ولا الرَّواحُ، ففيمَ الكِذْبُ والأَشَرُ
وفيمَ يَزْعمُ زَعَّامونَ أنهمُ - مِن بَعْدِ هذا - حيارَى، ضَلَّةً نَظروا
النّفيُ إن كان نفياً مطلقاً سَفَهٌ، والشكُّ عَجْزٌ، بهذا تَحكمُ الفِطَرُ
أستغفرُ اللهَ، إن الأمرَ قاطبةً للهِ، فَلْيَدَّكِرْ - إنْ شاءَ - مُدَّكِرُ
عبدَ اللطيفِ كأنْكَ الآن تسمعني، كذا الحديثُ، فلا يَسْتغرِبَنْ عُمَرُ
أحسنتَ؛ قال أناسٌ لا يناسِبُنا شِعرٌ نَمَتْهُ الفَلا والأُتْنُ والبَعَرُ

وقلتَ: يُبْطِل فِعْلُ الدهرِ زَعْمَكمُ، فما تخلّفَ عن إيقاعِهِ عُصُرُ

الشعرُ مِن نفَسِ الرحمنِ مُقتبَسٌ، له على ما سواهُ السّبْقُ والصَّدَرُ

أمّا الزمانُ فذا حَشْوٌ، حوادثُهُ كأنها لِنسيجِ الناسجِ الوَبَرُ

وإنما اهتَزَّ مِن قبْل اهتزازتِهِ - في عالمِ الغيبِ قبْل الواقعِ - الوَتَرُ

مستفعلنْ فاعلنْ مستفعلن فعلنْ، لحنٌ من الملأِ العُلْوِيِّ ينحدرُ

أصْلٌ، يغورُ بعيداً، راسخاً أبداً، وليس رَهْواً بأدْنى الهَبِّ ينتثرُ

وهلْ بَنَى قطُّ بانٍ غيرَ مُفْتَكِرٍ، إذَنْ فذاك بلا ريبٍ هو الهَدَرُ

أحسنتَ؛ قال أناسٌ مُلِّئُوا حَنَقاً، كأنهمْ في عزيزٍ عندهمْ وُتِرُوا

عروضُنا عسِرٌ، ونحوُنا عسِرٌ، وصَرْفُنا عسِرٌ، ودينُنا عسِرُ

وقلتَ: ماذا إذَنْ يَبْقَى، لَقولُكُمُ هذا هو الباطلُ البَوَاحُ والنُّكُرُ

لا كانَ - إنْ كان مَبْغاكمْ تَنَكُّرَكُمْ لِلوحْيِ، أو لِلسانِي - ذلك اليَسَرُ

أحسنتَ؛ قال أناسٌ: ليس يُنهضُنا ماضٍ تَوَلّى، غريبُ الوجهِ، مندثِرُ

وقلتَ: أَسْرفْتُمُ، بل سوف يُنهضُنا، وسوف يُنهضُنا، أن يُقتفى الأَثَرُ

أحسنتَ؛ قال أناسٌ: فوقَ مُكْنَتِنَا مِنْ بَعْدِ مُكْنَتِهِ أنْ يُدْرأَ الخَطَرُ

وقلتَ: بلْ لم يزَلْ في طوْقِنا عملٌ، وسوف ينفي الرَّزايا فتيةٌ صَبَروا

لهمْ بغَيْرِ المخازِي والخَنَا شُغُلٌ، وَرَاقَهُمْ في سبيل العِزِّة السَّهَرُ

عبدَ اللطيفِ وأنت الآنَ تَعلمُ ما يَنْفِي الشكوكَ، وما عَيَّتْ به الفِكَرُ

أمُرسِلٌ أنت للضُّلّالِ قافيةً، تقولُ للناسِ لا تَغرُرْكُمُ الصُّوَرُ

فما نهارٌ وما ليلٌ، وما فَلَكٌ، وما سديمٌ، وما شمسٌ، وما قمَرُ

وما حصاةٌ، وما رَمْلٌ، وما جَبَلٌ، وما سماءٌ، وما أرضٌ، وما مَطَرُ

مَنْ قال أَعْلمُ غِرٌّ، عند خالقِنا ـ وليس عند سواهُ ـ الخُبْرُ والخَبَرُ

فسَرِّحوا الطَّرْفَ في الموتى الأُلى غَبَروا، كم غَيْرِكُمْ، وكأيِّنْ قبْلكمْ سُحِروا

أمُرسِلٌ أنت للأعراب قافيةً تقول كُفّوا، عسى إنْ ذُكِّروا ازْدَجروا

المالُ للهِ، لا للمترفين، ولا للظالمين، فلا يَعْلُوا ويفتخروا

أَمُذْكِرٌ أنت أهلَ الغرْبِ أنهمُ، وإنْ سما عِلمُهمْ جدّاً، وإنْ نُصِروا

بَغَوْا، وأنّ لديْنا مثلَما مَكَروا مكْراً، فلا يُعْجِبَنْهُمْ أنهم قَدَرُوا

وأنه إنْ يكنْ فينا الأُلَى خَنَعوا، فثَمَّ شُمْسٌ أُباةٌ غيرُهُمْ غُيُرُ

شُمٌّ دُهاةٌ رُماةٌ قال قائلهُم، لَمّا استحرَّ الأذى، واستفحل الضّررُ

وعندما بَلَغَ السّيلُ الزُّبَى، وطغَى فوق الزُّبى، وطَغَى واسْتوحشَ التّترُ

وبان أن الحوارَ المُدّعَى عَبَثٌ، وأنّ داءً قديماً لم يَزَلْ يغِرُ

وأنّ كلَّ مَرامِ الغربِ ذِلَّتُنَا، شيئاً فشيئاً، وأنَّ الوَغْرَ يتّغِرُ

وَيْلُمِّها خُطَّةً، وَيْلُمِّ قَابِلِها، لمثْلِها خُلِقَ الصَّمْصَامَةُ الذَّكَرُ

وإنّ بطنَ الثَّرى أوْلى بِمُمْتَحَنٍ، مِنْ أن يَدِبَّ عليهِ وَهْوَ مُحتقَرُ

بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائف في متونهنَّ لأهلِ الملةِ الوَزَرُ

أمّا التهافتُ إيثاراً لعافيةٍ، فذاك واللهِ رأيٌ طاش مُبْتَسَرُ

وذاك أنّا انتقلْنا من أذًى لأذًى، إذا نَأَى خُسُرٌ أَلْوَى بنا خُسُرُ

فَلتخْسأ الحكمةُ العرجاءُ، كم حِكمٍ أَتَتْ علينا مُنيخاً فوقنا الصِّغَرُ

عبدَ اللطيفِ كأنك الآن تسمعُني، لا تبتئسْ، إنني ما زلتُ أصطبرُ

إني أَرَى ظَفَراً في الغَيْبِ مُرتقِباً جيلاً جديراً بأنْ يُمْنَى له الظَّفَرُ

لكنْ يحُزُّ بنفسي أنْ تفارقَني، وأنت نَدْبٌ، شديدُ البأس، مبتدِرُ

هلْ متَّ، قال اليقينُ المرُّ، قال، نَعَمْ، وكلُّ وُدٍّ سيعرو حَبْلَه بَتَرُ

كُلُّ ابنِ أنثى، وإنْ طالت سلامتُه، يوماً سيكسُوه مِنْ بعد الكَسَا غَبَرُ

لكنْ يحُزّ بنفسي أنْ أجيءَ إلى دار العلومِ فلا أُلْفِيكَ تنتظرُ

قد كنتُ أحسَبُ أنّ الموتَ ينزلُ بي مِنْ قبلُ، لمّا دَهَتْ أياميَ الغِيَرُ

وعندما بانَ جداً أنني شَبَحٌ يريدُ ينقضُّ، أوْهَى عَظْمَه الكِبَرُ

تعاورتْهُ خطوبٌ لا علاجَ لها، وطالَ في غيرِ شيءٍ ينفعُ العُمُرُ

وقلتُ إنّ لقاءَ اللهِ أَرْوَحُ لي، وهانَ لحدٌ مُجِيفٌ بابَهُ حَجَرُ

وقلتُ مَنْ ذاكِرٌ إيّايَ حينئذٍ، والناسُ ترضيهمُ الذكرى إذا ذُكِرُوا

وقلتُ يَنْظمُ مَرْثاتي أخو ثقةٍ، نَدْبٌ، بصيرٌ بفنّ الشعر، مقتدرُ

أَخْنَى عَلَى واحدي رَيْبُ الزمانِ، وما يُبْقي الزمانُ على شيءٍ ولا يَذَرُ

إنْ أنْسَ لا أنْسَ عينيْكَ اللتين هما، ككُل عينيْن، سرٌّ، دَقَّ، مُطّمِرُ

إنْ أنْسَ لا أنْسَ لمّا جَفّ ماؤُهما، وقالَ ما قالَ في مُوقَيْهِمَا النّظَرُ

هذا الوداعُ، ولن ألقاكَ ثانيةً، حَلَّ الذي ما وَقَى مِنْ حَلِّهِ حَذَرُ

جَرَرْتُ ساقيَّ نحو الباب يُثقِلُني عَجْزي، كَأنّيَ جيشٌ راح يندحِرُ

وليس مِنْ شيمتي ألّا أخِفَّ إلى عَوْنِ الصديقِ، ولا مِن شيمتي الخَوَرُ

وَدِدتُ لو كنتُ مســطيعاً، وهل أحَدٌ قبْلي أعَانَ مريضاً وَهْوَ يُحتضَرُ

وليـس مِن ديدني أنْ أسـتكينَ إلى دمْـعٍ لأجْلِ قضـاءِ الهَمِّ ينهمِرُ

لكننـي بشَـرٌ، واللهُ يَعْذِرُني إنْ شـاءَ، وَهْـوَ إذا ما شـاء مُغتفِرُ

فَلْتَـذْرِف العينُ، وَلْتبكـي فجيعتَها رفيقةٌ صَبَـرَتْ، ما عابها ضَجَرُ

وَاهَا وَأَوْهِ، وَوَاهَا أَوْهِ، واحَرَبا مِنْ لوعةِ الفقْدِ، شـيءٌ فيَّ ينكسِـرُ

* * *

إلى أُمٍّ مِن لُبنان

رأيتُها في مساءٍ، يَهْوَى خيالي ذِكْرَهْ

بسّامةً تَنْثُر العطفَ حولَها والمسرّه

رأيـتُ شاعرةً في عيونِها مُسْتتسِرّه

أصغتْ إليَّ فكانت تصغي إلى كلِّ نَبْره

شربتُ مِن ناظريْها شُربَ المريد المُكْره

كانا يقولان أحسنتَ، نظرةً بَعْدَ نظره

فراحَ يهمسُ قلبي، تضوّعي يا زَهْرَه

إنْ سافرتْ لم يسافرْ عبيرُها والخُضره

أَحببتُ لُبنانَ لمّا شممتُ فيها عِطره

غَنَّتْ فقلتُ تغنّيْ، إنّ السعادة قُدْره

كأسٌ ستفرُغُ يوماً، فلا تُضِيعي قَطْره

ولا تَضِنّي عليْنا، ما في الوِداد مَضرّه

ولا تخافي اقترابي، يا أمُّ، إنّيَ فِكره

تحيةً في نظيمٍ، يَدْري العليمون قَدْره

إليكِها، أمَرَ الحسنُ، كيف أعْصِي أمْرَه

مِن صاحبٍ لك باقٍ، أهْدَى إلى الحبّ عُمره

لو أمكنتْه الليالي أحبّ سبعين مره

* * *

حوار

رأيتُ الخيانةَ تُقْبل نَحْوي

فقال دمِي كلُّه: لا سلامْ

وَفَحَتْ ثعابينُها في الجِرابِ:

إلامَ صدودُكَ هذا، إلامْ؟

وقد جئتُ فَرّاجةً لكروبٍ،

وأنت المُدَمَّى، فكيف ألامْ

أيا غِرُّ لا تبْكِ حاءً وباءً،

لدَيَّ - إذا شئتَ - حاءٌ ولامْ

إذا لـم تُفِـدْكَ التجـارِبُ ألا
تبالـي، فيا شـيخُ أنـت الغلامْ

وأنـتَ - إذا أسْـعَفَتْ حيلـةٌ
ولـم تَرْتكبْها - رهيـنُ احتلامْ

فقلـتُ: خسَـأْتِ، وإنْ أرهقتني
وطالـتْ علـيَّ صنـوفُ الكِلامْ

أمِـنْ بَعْدِ خمسـينَ يطلُعُ صُبحٌ
علـيَّ يغشّـيه هـذا الظـلامْ؟

لأنـتِ العـدوُّ، خَسَـأْتِ،
ولو دارَ بَيْنـي وبينكِ يوماً كَلامْ

* * *

وَجَدَّ زَمَانٌ

امْـضِ إلى حيثُ تَـرَى قاربي؛
الحبـلُ متـروكٌ علـى الغاربِ

جَـدَّ زمـانٌ، فافْهمَـنْ حُكْمَـهُ
عَضَّ علـى الجاسـرِ والهائبِ

وخَـلِّ جَنْبَيْـكَ لِـرامٍ إذا
كَشَّـر، تَأْمَـنْ شِـرَّةَ الضاربِ

يَكْفيـكَ إنْ يُـرْغِ ويُزْبِـدْ
رِضَى الريحِ، ومَوْجٌ ليس بالغاضبِ

لا تَشْغَل البالَ بماضٍ مَضَى،
ولا بآتٍ مِثْلِه ذاهبِ

تَرَقرقَ الماءُ، وفي جُعبتي
خُبْزٌ، ودَنِّي ليس بالناضِبِ

وذا شريطٌ، لا يَمَلُّ الذي
يُصغِي إلى سلسالِه الخالبِ

لَسَوْفَ يصطادُك، حتى إذا
دَخَلْتَ في نومِكَ يا صاحبي

فاغْنَمْ من الحاضرِ لَذَّاتِه،
قَبْلَ حضورِ الحَنَشِ الغائبِ

وسوف تأتِي لك شَبَّابتي
- إذا انتشتْ - بالعَجَبِ العاجِبِ

سَجَت ليالينا، وطابَ الخَلا
للآكِلِ التَّيْسِ، وللشّاربِ

سجَتْ ليالينا، وَطابَ الهوى
للمُخْمَلِ المركوبِ والراكبِ

ونَحْن للحبّ خُلِقْنا، فلا
تُبَالِ إلا بلَمَى كاعبِ

والشّعْبُ مبسوطٌ، فلا تَلْقَهُ
لقَاءَ مكروبٍ ولا كاربِ

راضَتْهُ أنيابٌ حريريّةٌ
دهراً، فأمْسَى لَيِّنَ الجانبِ

والحَرْبُ-فيمَ الحربُ-أصْلُ الأذَى،
وشُغْلَةُ الناهبِ والغاصبِ

شمْطاءُ - لو شَبَّهْتَ - مكروهةٌ
للشّمِّ واسألْ جبهةَ القاطبِ

رثَيْتُ للباكي ومبْكِيِّهِ،
رثيتُ للظامئِ والساغبِ

فخَفْ على جِلْدِكِ، لا تَنْضَهُ
سالبةُ المسلوبِ والسّالبِ

يُنْبِيكَ ميراثُ قرونٍ خَلَتْ
أنّا - بحُكْم اللهِ - للغالبِ

فاغْنَمْ من الحاضرِ لذّاتِهِ،
واعْرِفْ جميلَ المُحْسنِ الواهبِ

ولا تَشَاءَمْ أبداً بالذي
يَجْري، ولوْ لمْ يَكُ بالصائبِ

وإنْ دنا منكَ غرابٌ، فلا
تَسْمَعْ لِغاقِ الأسودِ الناعبِ

وإنْ تَوَلَّى قمرٌ فانتظرْ
يوماً طلوعَ القمرِ الآيبِ

ليس من الحكمةِ غَشْيُ الأُلَى
قدْ أَرْغدوا، في منظرٍ شاحبِ

هذا زمانُ الظَّرْفِ، فافْهَمْ تَلِجْ،
أوْ لا فواجِهْ نكَدَ الحاجبِ

* * *

أَسْرفتُ في التعريض يا صاحبي،

فلْنَدَعِ الأَلْوَى إلى لاحِبِ

أسرفتُ في السُخْرِ، وما ينبغي

أن يَسْخَرَ اللاغبُ مِن لاغِبِ

حُدِّثْتُ عن نَجْمٍ دفينِ السّنا

حديثَ لا لاهٍ ولا كاذبِ:

أنَّ الذي غالَ أَمانِيَّنا

قصائدُ الهازئِ والنادبِ

لا تُرْتَجَى الصَّوْلَةُ مِن قاعدٍ،

يستَسْهِلُ النَّوْحَ، ولا لاعبِ

وربما أَزْرَى بآلامنا

تَصَنُّعُ الشاعرِ والكاتبِ

وكلّما اشتدَّتْ تباريحُنا

كان التّحدِّي أَوْجَبَ الواجبِ

ولو غدا المنطقُ أُحْجِيَّةً،

لَأَفْلَتَ الضَّرْعُ مِن الحالبِ

إن كنتَ صَدَّقْتَ الذي قلْتُه،
فأنتَ في طَفْوِكَ كالرّاسبِ

وكالأُلَى دانُوا لِخُرَّابِهم،
وقد بَدَا جِدّاً هَوَى الخارِبِ

أو كُنْتَ لم تَعْمَ عمانا فسَلْ
أيْن مَثَاوِي مَجْدِنا الغاربِ

ولا تحاوِرْني حوارَ الذي
يَهيمُ كالعشواءِ في جادِبِ

فلا رَأى المخرجَ منه، ولا
صادَفَ عُشباً في ثَرًى عاشِبِ

جراحُنا أغْوَر من مِبْضَعٍ
في يَدِ لا دارٍ ولا دارِبِ

والحلُّ موجودٌ، ولكنَّه
تحتَ ضروسِ الضَّيْغمِ الواثبِ

يا خاطِبَ العِزَّةِ ما أُمْهِرَتْ
يوماً سوى القَضَّابةِ القاضِبِ

لا تَعْذِلَنّي أنَّ لي شارباً
لَمْ يُحْفَ، أو أني بلا شاربِ

الدينُ بيداءٌ، فأوغِلْ، ولا
تُمْسِ بجَوْفِ الليل كالحاطبِ

ليس الجلابيبَ التي قُصِّرَتْ،
ولا لِحَىً كالأملِ الخائبِ

للبيتِ ربٌّ، فمتَى ينتخِي
لِيُرجِعَ النّوقَ أبو طالبِ

لَعِفْتُ أنْ أحْيا حياتي لَقىً
ينقادُ للدافعِ والجاذبِ

فاكْذِبْ على غيريَ يا ساهراً
للصبحِ في ماخورِه الصاخبِ

بَرِئْتُ لو أنَّ مَذَاييعَنا
تَبْرأُ مِنْ عُرْسٍ بها دائبِ

فليس باللائقِ في مأتمٍ
تَسَمُّعُ العازفِ والقاصبِ

فهـاتِ مجدافيـكَ يـا قاربـي

ولنبـدأ الهجـرةَ يـا صاحبي

أمامَنـا البحـرُ، فهيّـا بنـا

نجـوبُ ما عـزَّ علـى الجانبِ

ودِّعْ مُحِبّيـكَ؛ فقـد ينجلـي

هَبُّ الصَّبَا عن صَرْصرٍ حاصبِ

ولا يَهُولنّـكَ ذِكْـرُ الـرّدَى؛

فغايـةُ الهـاربِ كالحـارِبِ

ودِّعْ محبيـكَ؛ فقـد ينجلـي

قطْـرُ النّدَى عن عـارمٍ راعِبِ

ودَعْ رُباعيّـاتِ مُسْـتبتلٍ

لعاشـقٍ، أو عابـدٍ راهـبِ

أو سـاهرٍ للصبـح دارتْ بـهِ

دنـادِنٌ كالشـارعِ الصاخـبِ

وفـارِق الحيْـرَى وخَيّامَهـمْ؛

ملِلْـتُ مِـن ريْبٍ ومـن رائبِ

ولا تَهُمَّنْكَ ضلالاتُه،
فالأمرُ للمُكسبِ لا الكاسبِ

أعَيْشُنا طيفُ خيالٍ؟! إذَنْ
فما له كالحَسَكِ الناشبِ

أمْ هو في رأيِ عَمٍ قصّةٌ
يقصُّها ذو خَلَدٍ عازِبِ

إذَنْ، فما الفرقُ - تُرَى - بيننا
وبين سِرْبِ البَهَمِ السارِبِ

لم يَغْنِ مَحْياها وحوشَ الفَلا،
ولا تَرَدِّيها إلى تارِبِ

لكنْ قَضَى ربُّ بني آدمٍ
للطّفْلِ أنْ يسألَ: لِمْ يا أبي؟!

ويُجْفِلَ الداخلُ في آشبٍ،
ويصنعَ السالِفُ للعاقِبِ

ولو تطلَّعْتَ إلى شارقٍ
تساءلَتْ روحُكَ عن غاربِ

وعن ســماواتٍ، وعــن بَرْقِها،
ورَعْدِهــا، وصَوْبِهــا الصائبِ

فــلا تُــوَهِّــنكَ ضــلالاتُــه،
فالأمْــرُ للمكســبِ لا الكاســبِ

ولســتُ عــن أنْ أتغَنّــى كمــا
غَنَّــى خلِــيُّ البــالِ بالراغبِ:

ما أَضْيَــعَ اليومَ الــذي مَرَّ بي
وليــس لَيْــلَايَ إلــى جانبــي

لكنهــا تشــكو كمــا أشــتكي،
وكلُّ مــا يَحْزُبُهــا حازِبــي

رُضَابُهــا شَــهْدٌ، ولــو ضامَها
وَغْــدٌ، فسُــمٌّ في فــمِ الراضِبِ

أمامَنــا البحــرُ، فهيّــا بنــا
نجــوبُ ما عَــزَّ علــى الجائبِ

وراءَ ليــلاكَ، وكلِّ المَهَــا
عوالــمٌ كشَّــفَ عنهــا رَبِــي

واستصحِب الراغبَ في خَيْرِنا،

لا تعتمـدْ إلّا علـى راغـبِ

واحذَرْ، وإلّا مِلْـتَ عن لازبٍ -

وأنـتَ لا تـدْري - إلـى لازِبِ

ولا تَقُلْ لي شِـخْتَ؛ كمْ مِن فَتًى

عـن مُرْتقـى أشـياخِه ناكبِ

وإنْ تَفَشَّـى الشيبُ في مَفْرِقي،

فمـا فَشَـا فـي نَظَـرٍ ثاقِـبِ

امـضِ إلى حيـثُ أَرَى قاربي؛

مـا تُـرِكَ الحبلُ علـى الغاربِ

* * *

من وحي الوافر

رغِبتُ عن الهُراءِ فيا جليسـي

تَفَطّنْ، لسـتُ أسـمعُ ما تقولُ

ويـا هَمِّـي سـيُمضيكَ اعتزالٌ

وليـلٌ لا يُقـالُ لَـهُ: طويـلُ

ونَظْمُـكَ كُلّما عَـدَت العَوادي

قريضـاً لا يُدَاخِلُـهُ فضـولُ

به أَنَـفٌ مِن المكـرورِ، فاقْنعْ

بِصُحْبَتِـهِ، فـذاك هـو الخليلُ

يُحَـدِّثُ فيَّ قبل السـمعِ رُوحي
وإن يُطْنِـبْ فَإطْنَـابٌ جميـلُ

ويَعْـرفُ حاجتي للصمـتِ إمّا
كفانـي ما سـمعتُ فـلا يطيلُ

إذا حلَّـتْ بحيثُ قضَـى مُرادي
قَوَافِيـهِ تَطَرَّبَنِـي الحلـولُ

كأنِّـي شَـارِبٌ ثمِـلٌ سَـقَتْهُ
عيـونٌ غَازَلَتْـهُ، أو شَـمُولُ

كأنّـي زارَ صحرائـي حفيـفٌ
فأنـواعُ الحريـرِ بهـا تجـولُ

ألامِـسُ لا يَـرُدُّ هـوايَ خوفٌ
ولا سَـأَمٌ، ولا دَلٌّ مَطُـولُ

فَشَـعْرٌ دَاعَبَتْـهُ يَـدِي طليـقٌ
وآخَـرُ دَاعَبَتْـهُ يـدي جَدِيـلُ

وخَـدٌّ لَـذَّهُ مدحـي، وخـدٌّ
وَدِدتُ لَـوَ أنَّـهُ أبـداً أَسِـيلُ

وعِطْـرٌ غـضَّ نَفْحَتَـهُ حياءٌ
وعطـرٌ لا يُبَاليـهِ جَزيـلُ

كأنِّـي قائـدٌ لَبَّـاهُ مَجْـرٌ
لَـهُ كـرٌّ وفـرٌّ، لا فُلـولُ

* * *

مُفاعَلَتُنْ مُفاعَلَتُنْ فَعولُ
وكَمْ رَكَضَتْ لنا يوماً خُيولُ

أَعَانَتْهُنَّ حِكمتُنا قديماً
وها هيَ ذِي إلى سَفَهٍ، تَؤولُ

فَواأسَفا لإلهامٍ يُوَلّي
وواأسفا لسلطانٍ يَدُولُ

وليسَ يَسُودُ مَن يُعْيِيهِ وزْنٌ
وقافيةٌ تُجَاوِبُهُ عَقُولُ

مُفاعلتنْ مُفاعلتنْ فَعُولُ
أهذا الوقعُ يُدْرِكُهُ الأُفولُ

أَجِيبي عن سَليلِكِ يا قُروناً
تَوالَى وهْوَ زاهٍ لا يَحُولُ

أَجِبْهُمْ يا ابْنَ كُلْثومٍ، ولكنْ
تَرَفَّقْ، ربما أَصْغى قَبيلُ

فإنْ صَمُّوا فلا تأسفْ عليهم
سَيَنْجُمُ بَعْدَ هذا الجيلِ جيلُ

يَحِــنُّ لِخَفْقَةٍ طُرِحتْ، ويأْسَــى
لقافلــةٍ تَخَوَّنَهــا الدليــلُ

عَلَــى أنّي لهــمْ وإن اســتبدُّوا
بمرْصــادٍ، وإنْ عَــزّ المُقِيــلُ

ويَحْكُــمُ بَيْنَنــا يا عمــرُو رأيٌ
صقيــلٌ، لا القنــاةُ ولا الصّقيلُ

وشِــعْرٌ ليــس يَغْنِيــهِ إذا مــا
سَــما الإيقاعُ رفْــضٌ أو قَبولُ

سَــتُبْحِرُ حيثُ لا سُــفُنٌ سَفِيني
يَشُــقُّ الحُجْبَ بِي فِكْــرٌ رَحولُ

وتنقــادُ الشّــواردُ لــي، وإلا
فَجَالِبُهُــنَّ لــي شَــرَكٌ خَتُــولُ

إذا قالــوا: حِبــالٌ، جَمْــعَ حَبْلٍ
أقــولُ ولا أُبَالِيهِــمْ: حُبــولُ(41)

فما هَــدَلَ الحَمامُ لأَجْــلِ مُصْغٍ
يــروقُ بِسَــمْعِهِ ذاك الهديــلُ

أَنِــدُّ فليــس مَبْذولــي بــزادٍ
وغايــةُ رِحْلَتــي أَجَــمٌ وغِيــلُ

* * *

(41) بعـضُ الناس يُنشـد البيت برفع هذه الكلمة، والصـواب مـا أثبت. والمعنى «إذا قالوا حبالٌ - عنيتُ جمعَ حبل - فتأمّلْ.

مُفاعَلَتُــنْ مُفاعلتــنْ فَعُــولُ
وأمســتْ لُعْبتي هَــذِي الغُلولُ

سَــلَوْتُ وكلُّ هَــمٍّ دُونَ همّــي
وأَصْــلٌ فــي خَلائِقِــيَ الحُفولُ

أقــولُ إذا ادْلَهَــمَّ الأفْــقُ: هَوْناً
فــكلُّ النَّسْــجِ مُبْرَمُــهُ سَــحِيلُ

وكلُّ قصائِــد الشــعراءِ يومــاً
ســيَفْنى القائلُوهــا والمَقُــولُ

فيــا عَدَمــاً كأنــي مُرْتَئِيــهِ
عِيانــاً، لــنْ يُرَوّعَنــي الرحيلُ

وليــس بِسَــالِبي حَقّــاً تُــرابٌ
تســاوَى فــي غَيَابَتِــهِ النُّزُولُ

جَزَانِــي أنَّ أَصْفَــى مــا خُلِقْنا
لِرُؤْيَتِــهِ أَرَانِيــهِ الشُّــمولُ

وهَــوَّنَ مِن صِيــالِ الغَيِّ عِندي
يَقِينِــي أنَّ مُرْشِــدَنا ضَلُــولُ

وواعظُنا الذي ما جَدَّ إلا
لِيَطْعَمَ، أوْ لِيُطْعِمَ مَنْ يَعُولُ

وإيمانٌ تُوَهِّنهُ ظُنُونٌ
وبعضُ الظنّ قتّالٌ قتُولُ

وأوهامٌ نُسَمّيها حُلولاً
وعندَ عليمٍ ما خَفِيَ الحُلولُ

وطَرْفٌ غَاضَ فِيهِ كلُّ حُسْنٍ
وطرْفٌ أَحْورٌ، دَعِجٌ، كحيلُ

وأنثَى في قرارةِ كُلِّ أنثَى
عنَاها دونَ فَضْلِهُمُ الفُحولُ

يطيبُ لها العشيقُ وإنْ عَدَاها
رضاهُ، ولا يطيبُ لها الحَليلُ

عَرَفْتُ شرارةً منها اطمأنَّتْ
فَأنْشَبَ ظُفْرَهُ الطَّبْعُ الوبيلُ

أقولُ مُعَزِّياً صحْبي، ونَفْسي
رُويداً، إنما الدنيا فُصُولُ

لنا حيناً وأحياناً علَيْنا
وليسَ الخيرُ حالاً لا تَحُولُ

* * *

مُفاعلتـــنْ مُفاعلتـــنْ فعُـــولُ
تهـــبُّ الريـــحُ لكنّـــي حَمُـــولُ

وكَمْ سَـــكَنَ احتدامي ثُـــمّ أَوْرَى
وأَخْلَـــفَ مـــا ظَنَنْتُ بـــه الفَتِيلُ

فهاتِـــي ما بـــدا لكِ يـــا عَوَاتِي
فمـــا ضَرِيَـــتْ بلا بأسٍ شُـــبُولُ

تعاظَـــمَ شِـــرَّةَ الأشـــرارِ غَيْري
وجَلَّ على سِـــوى الحُـــرِّ الجليلُ

وأَحْكَـــمَ مِرَّتـــي، وأَقَـــلَّ لَهْوِي
طُمُـــوحٌ لا يكُـــفُّ لـــه غَليـــلُ

وتصريـــفُ الـــكلامِ يَـــدِقُّ حتّى
يقـــولَ العُجْـــبُ ليس لـــهُ مثيلُ

* * *

إليَّ إليَّ فاعِلتنْ فعولُ
تمكّنَ في الحَشا الداءُ الدَّخيلُ

إذا مازالَ شوقٌ بَعْدَ لأْيٍ
أزالَ زَوالَهُ شوقٌ سليلُ

أَعَيْناها، أَخَدَّاها، أفُوها
أَنَهْداها، أم الخَصْرُ النّحيلُ

تَنَزَّهَ بُرْهةً فيها خَيالي
لِيُنكرَ فِعْلَهُ خُلُقٌ عَذُولُ

لِأُلْفِيَنِي، وإنْ صَحَّ اعتزامي
تَنازَعَنِي التَّنائِي والقُفُولُ

إلى حينٍ، أُجَمِّعُ فيه لُبّاً
شتيتاً، ثُم تَتَّحدُ السبيلُ

ولكنِّي، على بَصَرِي وخُبْرِي
أرجِّي دائماً مَنْ تستميلُ

كأنَّ تلهُّبي ما كان يوماً
وماضِيَ حُرْقتي ظِلٌّ ظليلُ

سأَهْوَى ما حَيِيتُ، نقيعُ سُمٍّ
شَرَابي المُرْتجَى أو سَلْسبيلُ

مُفاعَلَتُنْ مُفاعلتنْ فعولُ
تحامَلْ أيُّها الحادِي النبيلُ

ولا يَكْرُبْكَ أنَّكَ صِرْتَ فرداً
وأنَّ كتائبَ المَوْتَى تصولُ

وأنْ دَانُوا بما تأباهُ ديناً
وأنْ نَعِمَتْ بِحِطَّتِها العُقولُ

وطغيانُ الهَوَى في الناسِ حتى
كأنَّا عافَ نِسْبَتَنا العُدولُ

إذا يُمْناكَ راميةً أجادتْ
فقَرَّتْ في مراميها النُّصُولُ

تَرَنَّمْ، وَخشتي طالتْ، وقَوْمي
دماءٌ ليس يُوقِظُها المَسِيلُ

أساءَ كَثيرُهُمْ، ويكاد يَحْكِي
كثيرَ مَسَاءَةٍ حَسَنٌ قليلُ

ترنّمْ رُبما يَنْأى ترابٌ
أُهِيلَ ويَأْسُنا الداني المُهِيلُ

وناهِضٌ في عزائمِنا انحلالاً
لهُ في طُورِ سَيْناءٍ صَليلُ

وعَلّمْنا مُصابرةَ البَلَايا
وأنَّ البَدْءَ فَرْحَتُهُ الوُصولُ

وكَيْفَ الهَوْلُ يُصْبحُ أنْ سَهِرْنا
لِلُقْياهُ سِنيناً لا يَهُولُ

وأنَّ سِلاحَنا بِيَدِ الأعادِي
إذا يُعْطاهُ وِجْدانٌ هزيلُ

فَعَلّمْنا وعَلّمْنا وعَلّمْ
وإنْ نَكِرَتْكَ أَدْمِغَةٌ فُسُولُ

دَعَاكَ إلى مُتابَعَةِ الأُسَارى
فلا تَسْمعْ له زمنٌ عَقِيلُ

يُرَجّي مُوثَقُوهُ أنْ يَنالُوا
وخِزْيٌ في العواقبِ ما يُنِيلُ

لَهُمْ صَخَبٌ أرادوهُ وِقاءً
فهَلْ تُنْجِي ضَمائِرَهُمْ سُدُولُ

تَخَلَّوْا حين شَقَّ سِوى التّخلّي
وهانَ فلَمْ يُعَادُوهُ السُّفولُ

وكمْ قالوا: تحرَّرْنا فرَدَّتْ
جِبالُهُمُ تشكّي والسُّهولُ

فَيَا حُرِّيَّةً كَسْلَى تَوَارَيْ
أَذَانا لنْ يُطيحَ بِهِ كَسُولُ

تَبَرَّأت الرجولةُ مِن رجالٍ
قُصارَى دَفْعِهِمْ قالٌ وقِيلُ

إلامَ تُجَوّزُ الأبواقُ ما لَمْ
يُجِزْ إلّا غبيٌّ أو عميلُ

لَئِن لمْ يَنْفِ طبْلَهُمُ نُفاةٌ
لَنَافِيَةٌ مَكَارِمَنا الطُّبولُ

هُمُ؟ كَلّا تواضَعْ يا فؤادي
فإنّكَ بين قتلاهُمْ قتيلُ

صَغُرْنـــا كُلُّنـــا لَمَّـــا رُمِينـــا

فَسِـــيَّانِ التَّرَفُّـــعُ والنُّـــزولُ

فلا يَغْـــرُرْكَ أنَّـــكَ كُنـــتَ أَدْرَى

فلَـــمْ يَغْـــرُرْكَ مِن زَيْفٍ شُـــكولُ

ولا يُعْجِبْـــكَ إشْـــرافٌ عليهـــم

ومَنْظَـــرُكَ الخرائـــبُ والوُحولُ

كأنَّكَ لســـتَ مِنهُمْ، أنـــتَ مِنْهُمْ

وتَشْـــهَدُ حَسْـــرةٌ بـــكَ لا تزولُ

بـــلادِي، إنَّ فـــي دمِنـــا صَوَاباً

طَـــوَاهُ الحِرْصُ والنظـــرُ الكليلُ

يدُلُّ عليـــه - كان يـــدلُّ - أَمْسِ

فكَيْـــفَ يُجِـــدُّ هيئتَـــهُ الدليـــلُ

وكيفَ يعودُ في الأعراقِ يَسْرِي

إبـــاءٌ طالمـــا قُلنـــا: أصيـــلُ

لِنكـــرَهَ أنْ يقـــولَ العَجْـــزُ فينا

ونحـــنُ نموتُ موتاً، مـــا البديلُ

* * *

مُفاعلتنْ مُفاعلتنْ فعولُ
تواصَلْ أيها الغيثُ الهَطُولُ

سُيولاً تَجْرِفُ الأفيونَ يَنْمُو
على وَرَقٍ، تُوافيها سُيُولُ

أعانَ المستبيحَ على التّمادِي
صديقاه: المنافقُ والجهولُ

وأشعارٌ لِنَوّاحِينَ تَبْكِي
كأنَّ الدَّمْعَ بالبَلْوَى كفيلُ

وزَعّامونَ ما بَرِحَ ادِّعاءٌ
لَهُمْ تِلْوَ ادِّعاءٍ يستطيلُ

وهَذْرُ الهاذرينَ على أصولٍ
وهذرُ الهاذرينَ ولا أُصولُ

أَيَهْزِمُنا البناءُ على فسادٍ
فَيُتَّهَمَ «الكسائِي» و«الخَليلُ»

أحاطَ بنا المغُولُ، أَجَلْ، ولَكِنْ
خِلالَ ديارِنا يَسْعَى مَغُولُ

فهَلْ مِنْ صحوةٍ، إنّ الرزايا
طَغَتْ في فَتْكِها، وطَغَى الذُّهولُ

* * *

مُفاعلتنْ، تَغَنَّ، وقُلْ تَغَنَّوْا
فما اجتمعَ التَّغَنِّي والذُّبولُ

جِبَاهَكُمُ، فما أَجْدَى الحزانَى،
وَجِعْتُمْ أو تَواجَعْتُمْ، عَويلُ

كَذَبْتُمْ كُلُّكُمْ، وإِخَالُ أنِّي
على صِدْقٍ شَقِيتُ بِهِ - زَميلُ

لِأَعْيُنِ مَنْ سَمَتْ وصَفَتْ سماءٌ
وأَحْسَنَ نَشْرَ صُفْرَتِهِ أَصيلُ؟

وشَقّ الأرضَ ماءٌ تِلْوَ ماءٍ
وأَيْنَعَ فوْقَ شاطئِهِ خَمِيلُ

لِأعْينِ مَنْ تَزَيَّنَت المغانِي؟
لِأَعْينِ مَن تَطاوَلَت النخيلُ؟

لِأعْينِ مَنْ تجرَّأت العَذَارَى
وفارَقَهُنَّ إغْضاءٌ خَجولُ؟

لَنا، ولِغَيْرِنا - إنْ لَمْ نَصُنْهَا
وليس بجائرٍ إلا الذّليلُ

وكَمْ مُلْكٍ أَذَالَ اللهُ مِنْهُ
وإغماضُ العيونِ هو المُدِيلُ

ودُنْيا فَضَّ حُرْمَتَها غُزاةٌ
فما اختلفَتْ أَنْ اخْتَلَفَ البُعولُ

فصُونوها وصُونوها وصُونوا
فما تَدْرِي الرُّبوعُ مَن النَّزيلُ

وما يَدْرِي بِخُضْرَتِهِ ثَرَانا
فيُجْدِبَ أَنْ تَمَلَّكَهُ دَخيلُ

* * *

مُفاعَلَتُنْ مُفاعلتنْ فعولُ
ومَلَّ مُقَامَنا المَجْدُ الأَثيلُ

لِغَيْرِ اللهِ صَلَّى العُرْبُ طُرّاً
وسَبَّحت المصانعُ والحقولُ

ولَيْتَ المالَ عَزَّ فلَمْ تُسِلْهُ
خزائنُ في مَهَانَتِنا تَسيلُ

دَنَــا، فليَحْذَرِ الحمقَــى، قضاءٌ
إذا عَجِلَــتْ حَمَاقَتُهُــمْ عَجُــولُ

فيــا أَرْبَابَنــا، يــا مُتْرَفينــا
ستَسْــجُدُ فــي غدٍ لكــمُ الطُّلولُ

ويَبْقَــى عــارُ غفلتِنــا عِبَــاداً
وآلــهــةً، إذا لَــجَّ الـغُـفـولُ

* * *

إلــيَّ إلــيَّ فاعلتُــنْ فَعُــولُ
زَمــانُــهُــمُ بــأنــدادِي بخيلُ

أَمُعْتَزِلــي رَجَعْــتُ إليــكَ إنِّــي
عليــلٌ ليــس يُشْــبِهُهُ عليــلُ

يظنُّــون المَلالَــةَ فــيَّ طبْعــاً
ولـكـنّـي غـريـبٌ لا مَـلُـولُ

ولِي أَرَبٌ، ولكنَّ الليالِي -
لِأَنَّ القَهْرَ أَفْسدَها - تَحولُ

إذا خَنَعَ الرجالُ فَعَدِّ عَنْهُمْ
فأَهْونُ ما طَلَبْتَ المُسْتحيلُ

وما نَأْيَ النُّكُولِ نَأَيْتُ، لَكِنْ
لأنَّ رضا الهوانِ هو النُّكولُ

فإنْ تَكُ شاءت الأيامُ دَحْرِي
فلَنْ يُمْضِي مَشِيئَتَها النُّذُولُ

ولا الأغرارُ طَمَّعهمْ نُحولي
ولَوْ يَدْرونَ راعَهُم التُّحولُ

ولا بَشَمُ الثعالبِ لَمْ تَذُدْها
نواطيرٌ وعُنقودي ضئيلُ

ولا أنِّي أَضِيقُ بأَنْ أُدارِي
مشاهيراً يحِقُّ لها الخُمُولُ

ولكنْ أَنْ تُسَاقَ إلى رَدَاها
أُلوفُ أُلوفِنا وهِيَ الذَّلولُ

الفهرس

أُلامِسُ لا يَرُدُّ هوايَ خوفٌ
ولا سَـأَمٌ، ولا دَلٌّ مَطُـول

فَشَعْرٌ داعَبَتْـهُ يَدي طليقٌ
وآخَرُ داعَبَتْـهُ يدي جَدِيـلُ

وخَـدٌّ لَـذّهُ مدحي، وخَـدٌّ
وَدِدتُ لَـوَ أنّـهُ أبـداً أَسِيـلُ

وعِطْرٌ غضّ نَفْحَتَهُ حيـاءٌ
وعطـرٌ لا يُبَـاليـهِ جَزيـلُ

دائرة الثقافة الشارقة